

الإسلام
في حوض البحر الأبيض
٢

أ — المسلمون يدخلون حوض البحر الأبيض :

في السنة الثامنة للهجرة ، وبينما كان الرسول (ﷺ) يتأهب لفتح مكة ، رأى أن يبعث بعثاً من المسلمين إلى بلاد الغساسنة الذين قتلوا رسوله الذي بعثه إليهم قبل ذلك بقليل ، وليضع يده على مؤتة ، وكان أهلها يصنعون صنفاً ممتازاً من السيوف يعرف في النصوص العربية بالسيوف المشرفية . ولم توفق هذه الحملة فيما قصدت إليه ، لأن الحامية البيزنطية المعسكرة وراء الأردن ، يؤيدها عدد من قبائل عرب الشام الموالية للروم ، ففرت للقاء المسلمين — وكان عددهم ثلاثة آلاف يقودهم زيد بن حارثة — وأنزلت برجالها هزيمة شديدة ، وقتل قائدها زيد وخلفه جعفر بن أبي طالب فعبدالله ابن رواحة فقتلا ، ولم تنج بقية البعث الإسلامي إلا بفضل مهارة خالد بن الوليد ، فقد عرف كيف ينسحب ببقية المسلمين عائداً إلى المدينة ^(١) . وكان هذا أول لقاء بين الإسلام وعالم البحر الأبيض المتوسط ، وهو لقاء لا ينبئ بما كان بعد ذلك من غلبة المسلمين على شواطئ ذلك البحر ، ولكنه يدل على أي حال على اتجاه نظر الرسول إلى الشمال ، وإلى أن الامتداد خارج الجزيرة العربية كان في حسابه قبل فتح مكة .

(١) ابن الأثير : الكامل (المطبعة النثرية ، القاهرة ١٣٤٩) ج ٢ ، ص ١٥٨ — ١٦٠ .

وقد ختم الرسول أعماله العسكرية بغزوة «تبوك» عام ٩ للهجرة ، وهي غزوة يسيرة لم يحدث فيها قتال خلا ما كان من سير خالد بن الوليد إلى دومة الجندل وأسره صاحبها^(١) ، ولكنها عظيمة الدلالة ، فهي آخر خطوات التوسع الإسلامي في حياة الرسول ، وهي كالإشارة إلى الطريق الذي تعين على خلفائه اتباعه في السير براية الإسلام ، ومصدق ذلك أن الرسول لم يقنع بالنتيجة التي وصل إليها من مسيره إلى تبوك ، ورأى معاودة الكرة وأعد حملة جديدة قرر تسييرها إلى الشام وجعل عليها أسامة بن زيد بن حارثة الذي قتل في غزوة مؤتة ، ولكن الوفاة أعجلته عن إنفاذها . وتولى أبو بكر فرأى أن يكمل ما بدأ به الرسول من تسيير بعث أسامة بن زيد ، ولكن حروب الردة شغلته عن ذلك^(٢) ، فلم يستطع توجيه الجند المسلمين نحو الشام إلا بعد الفراغ من أمر المرتدين .

ففي أوائل صفر سنة ١٣ للهجرة سارت نحو الشمال ثلاثة جيوش إسلامية لا يزيد مجموع رجالها عن ٢٤ ألف مقاتل ، يقودها ثلاثة من شباب قادة المسلمين هم : عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل ابن حسنة ، وأمدتهم أبو بكر بنهر بعد نفر من المسلمين . وكان أبو عبيدة عامر بن الجراح على بعض هذه الإمدادات ، واستطاع أولئك القادة — بمعاونة خالد بن الوليد الذي خف لعونهم من العراق — أن يتموا فتح الشام في سنتين (٦٣٤ — ٦٣٦) ، واستقر عامل المسلمين في دمشق مكان عامل البيزنطيين ، واستولى المسلمون على ساحل البحر الأبيض وكبار موانئه حتى

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٨٩ — ١٩١ .

(٢) كان أبو بكر يدرك استحالة إنفاذ بعث أسامة إلى الشام ، ولكنه أصر على تسييره رغم معارضة شديدة من المسلمين ومن عمر بن الخطاب نفسه . وكان غرض أبي بكر أن يشعر العرب أن لديه من القوة ما يسمح له بإنفاذ بعث كبير إلى الشام ، وكان لذلك أثره في رد الكثيرين منهم عن الارتداد كما قال ابن الأثير نفسه ، وقد اختصر أسامة بعثه ، فلم تزد مدته عن أربعين يوماً ، ولم يفعل أكثر من الإغارة على بعض قبائل قضاة ، والغالب أن ذلك كله كان بالاتفاق مع أبي بكر . انظر : ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

أنطاكية في الشمال ، وكانت أكبر بلاد ساحل الشام وموانيه ، وكان فيها كذلك أعظم بطريركياته مقاماً وأبعدها أثراً في تاريخ المسيحية في هذه العصور .

بهذا الفتح دخلت الدولة الإسلامية نطاق البحر الأبيض المتوسط ، ووضعت قدماً ثابتة في سوريا ، وسيطرت على موانئها ، وكانت أحفل ثغور البحر الأبيض بالتجارة والسفن وأكثرها حيوية ونشاطاً على ما ذكرناه ؛ ودخل في خدمة المسلمين هذا الشعب الذي كان يجمع بين يديه زمام جانب عظيم من النشاط التجاري في البحر الأبيض .

ب — المسلمون يسيطرون على شواطئ البحر الأبيض في الشرق والغرب :

وقد رأينا كيف أن الدولة الإسلامية اتجهت نحو البحر الأبيض غداة قيامها ، ولسنا نستطيع تعليل هذا الاندفاع نحو حوض هذا البحر بمجرد الرغبة في التوسع ونشر الإسلام ، أو أنه كان نتيجة طبيعية لدخول « روم العرب » في طاعة الإسلام ؛ لأن العرب اتجهوا لغزو بلاد الدولة الفارسية قبل أن يشرعوا في فتوح الشام ، ولكنهم لم يبدعوا في فتوح فارس إلا بعد أن فرغوا من أمر الشام ، وفي نفس الوقت الذي بدأت جيوشهم تلتحم فيه مع جيوش الفرس كان عمرو بن العاص يستأذن عمر بن الخطاب في المسير لفتح بلد بحري متوسطي آخر ، هو مصر . أى أن شواطئ البحر الأبيض اجتذبت العرب بنفس القوة التي اجتذبت بها الإغريق القدامى والرومان والجرمان من بعدهم .

وقد استمر الاندفاع الإسلامي نحو شواطئ البحر الأبيض على صورة متصلة النشاط والقوة ، لم تتوقف إلا أمام العقبات المانعة التي استحال عليهم تخطيها بالفعل ، مما يدل على أن دافعاً قوياً كان يدفع المسلمين إلى السيطرة على شواطئ هذا البحر والقبض على نواصيه من الشرق والغرب ، لا يكاد يصرفهم عن إتمام هذه السيطرة شيء . فقد أتم العرب فتح مصر عام

٢٢ هـ — ٦٤٢ م باستيلائهم على الإسكندرية ، وكانوا مستطيعين بعد ذلك التصعيد مع مجرى النيل إلى النوبة والسودان ، وكانوا واجدين في الاتجاه نحو الجنوب بلاداً واسعة وفتحاً عظيمة القيمة لهم خاصة ، ولكننا نجدهم بدلاً من ذلك يستطردون مع ساحل البحر نحو برقة ، عابرين صحراء واسعة ، مستهدفين لكثير من المخاطر ؛ ونجدهم بعد استيلائهم على برقة يسرون بجذاء سواحل طرابلس الطويلة حتى يصلوا إلى إفريقية ، وهى ما يعرف اليوم بتونس ، حيث يخوضون معارك حامية تنتهى بسيادتهم على هذا القطر الصغير ؛ ثم يمضون يشقون طريقهم على سواحل المغرب فى عنف وصبر واحتمال مدى سبعين سنة حتى نجدهم عند سبتة عام ٩١ هـ — ٧٠٩ م . وبعد هدنة قصيرة يعود البحر الأبيض فيجذبهم من جديد فيعبرون إلى الأندلس ، وفى أقل من عامين نجدهم عند جبال البرتات ، وهى المعروفة خطأً بالبرانس ؛ ثم يسترسلون مرة أخرى فى حماس وحمية ، فيحتلون شواطئ بروفانس حتى مصب الرون ، ويتخذون بلدة أربونة Narbona مركزاً لهم ، وينتقل مركز النشاط الإسلامى كله إلى هذه الناحية خلال عصر الولاة الأندلسيين ، حتى إن بعضهم كان يقيم فيها دون قرطبة ، ولم يتوقف هذا التدفق العنيف إلا بعد هزيمة بلاط الشهداء فيما بين تور وبواتيه عام ١١٤ هـ — ٧٣٢ م . ويصر المسلمون رغم ذلك على الاستمساك بما بقى فى أيديهم من نواحي غالة الجنوبية ، فلا تسقط أربونة من أيديهم إلا بعد عشرين سنة كلها كفاح وصراع ، ويتشبت المسلمون بعد ذلك بشعاب جبال البرت وما يلاصقها من بلاد الحدود الشمالية الغربية الإيبيرية ، فلا ينتهى أمرهم منها إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى^(١) .

وليس بغريب والحالة هذه أن نقرأ فى بعض المراجع أن موسى بن نصير — عندما أوغل فى الأندلس — قرر أن يخترق أوروبا مساحلا البحر

(١) المرقى : نفع ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

الأبيض حتى يصل إلى القسطنطينية ، وأن تفكيره هذا روع الخليفة الوليد ابن عبد الملك فكتب إليه يستقدمه وينهاه عن «التغريب بالمسلمين» ، ولم ينته المسلمون رغم ذلك ، بل ظلوا يضربون في طريقهم حتى وجدوا — كما يقول الرازي — حجراً قد نقش عليه : «يا بني إسماعيل ، انتهيم فارجعوا» ، وهي رواية أسطورية الطابع ولكنها ذات دلالة نفسية ومعنى لا يخلو من عمق ، وإذا نحن جمعناها إلى الرواية السابقة ؛ وحاولنا تفسيرهما على ضوء الاتجاه العام للفتوح العربية ناحية الغرب ، استطعنا أن نقول إن أمثال هذا الكلام ليست مجرد حديث أساطير ، بل هي تصوير لما كان المسلمون يسعون نحوه عن إحساس واع أو عن نزوع ساذج متأثر بذلك الدافع التاريخي البعيد الذي كان يحرك العرب في هذا الاتجاه ، دون أن نجد فيما بين أيدينا من المعلومات من خطط الفتوح العربية ما يفسره ويشرحه .

ج — العرب في جنوب غالة وبروفانس :

تعتبر أعمال المسلمين العسكرية شمالى جبال البرت وفي منطقة بروفانس حلقة متممة لنشاطهم في حوض البحر الأبيض الغربى ، ولما كانت معلوماتنا قليلة في هذه الناحية . فقد رأيت أن أورد موجزاً لنشاط المسلمين في هذا الميدان .

بدأ العرب الامتداد فيما يلى جبال البرت في ولاية عبدالعزيز بن موسى ، فقد استولى المسلمون في عهده على جرونة Girona وأربونة Narbona سنة ٩٦ — ٧١٥م ثم ارتد المسلمون عنهما ، وعاد السمع بن مالك الخولاني فاستولى عليهما واتجه نحو طولوشة Tolosa ١٠٠ — ٧١٨ ، وعلى مقربة من هذا البلد الأخير التقى بجيش فرنجى يقوده أودون Eude دوق أقطانية Aquitania وانهزم الجيش الإسلامى وقتل السمع نفسه ٨ ذى الحجة

١٠٢—٩ يونيو ٧٢١ ، وعاد المسلمون إلى أربونة فتحصنوا بها . ثم نهضوا من جديد يقودهم عنبة بن سحيم الكلبي خليفة السمح فاستولوا على قرقشونة Carcasona ونيمة Noemasum ، ثم وصل عنبة إلى وادي الرون وصعد معه حتى وصل إلى نهر الساعون ودخل إقليم بورجونيا واستولى على أوتان Autun ١٠٦—٧٢٥ ونهب الإقليم كله دون أن يلقى مقاومة تذكر .

وبعد ذلك بسبع سنوات قام العرب بأقوى حملاتهم في غالة يقودها عبدالرحمن الغافقي ، وقد بدأ يحشد قواه في نبلونة Pampelona في صيف ٧٣٢/١١٣ وسار فاستولى على تور ، وتقدم نحو الشمال ، وعجل بالسير نحوه شارل مارتل (قارله) في جيش حافل ، وكان اللقاء الحاسم على ١٧ كيلومترا شمالي تور عند موضع يغلب على الظن أنه مواسيه لاباتاي Moissais la Bataille الحالي في منطقة يقع وسطها قصر قديم هو المعروف ببلاط الشهداء في رمضان ١١٤—أكتوبر ٧٣٢ حيث لقيت الجيوش الإسلامية هزيمة كبيرة ، واستشهد الغافقي . ولم تنته جهود المسلمين فيما وراء البرت بعد «بلاط الشهداء» ، إذ ظلت أربونة في أيديهم واستمر نشاطهم في الجهاد ، فبعد سنتين من «بلاط الشهداء» ١١٦—٧٣٤ قام يوسف الفهرى عامل الأندلس بغارة كبيرة في وادي الرون ، وعبر هذا النهر واستولى على آرل وسان ريمي بروفانس Saint Rémyde Provence وصخرة ابنيون Avignon ؛ غير أن شارل مارتل استرد منهم هذا البلد الأخير بمعاونة قوات برغنديّة ، ثم أقبل يحاصر أربونة ، فسار عامل الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى لنجدة البلد ، ولكنه انهزم سنة ١١٧—٧٣٧ ، وحاصر شارل مارتل أربونة دون توفيق كبير . واستمرت أربونة في يد العرب حتى سنة ١٣٣—٧٥١ حينما استولى عليها يمين القصير أول ملوك البيت الفرنجي الكارولنجي . وقد بقيت شمال البرت بعد ذلك جماعات كثيرة من المسلمين متفرقة بين بروفانس والأوفرنى ، ووصل بعضها إلى وديان سويسرا

الجنوبية ، ولا زالت آثار هذه الجماعات الإسلامية باقية في تلك النواحي إلى اليوم^(١) .

هذا ولا حاجة بنا هنا إلى الإسهاب فيما هو معروف من اجتهاد المسلمين في الاستيلاء على القسطنطينية محتملين في ذلك من العناء والخسائر ما لم يكن لهم به عهد في ميدان آخر ، وهم لم يكونوا — كما نعلم — أهل بحار ولا عهد لهم بمعاناة الملاحاة وأخطارها ، ولكن اندفاعهم نحو البحر الأبيض ورغبتهم في السيطرة على شواطئه هون عليهم ما صادفوا من الأهوال بين أمواجه ، فنجد رجالا منهم لم يسبق لهم أن ساروا بفلك في ماء يقودون المعارك البحرية على ظهور السفن ويكسبون بعضها ، كما فعل عبدالله بن سعد بن أبي سرح في غزوة ذات الصواري

وفيما بين سنتي ٤٨ — ٦٦٨ و ٦٦ — ٦٨٥ نجد سفن المسلمين تخرق بحر إيجه والدردنيل ، ورجالهم يحتلون جزيرة سيزيكا في بحر مرمرة ويواترون الحملات على القسطنطينية المرة تلو المرة في إصرار بالغ ، فلا يرتدون إلا بعد أن تبلغ بهم الخسائر مبلغاً يستحيل عليهم الاستمرار معه ، وبعد أن تفعل النار اليونانية بسفنهم الأفاعيل .

(١) راجع :

ابن عذاري : البيان المغرب (طبعة دو زى) ج ٢ ، ص ٢٢ — ٣٣ .

الأخبار المجموعة (طبعة لافريتي ألكانتا ١) ص ٢٢ — ٤٧ .

ابن القوطية : افتتاح الأندلس (مدريد ١٩٠٦) ، ص ١٤ — ٤٠ .

ابن عبدالحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس (طبعة تورى) ، ص ٢٠٤ — ٢٢٠ .

المقرئ : نفح الطيب (طبعة دو زى وراثيت وكريل ودوجا) ، ج ١ ، ص ١٦٠ — ١٧٥ .

M. Renaud: *Invasions des Sarrazins en France, et de France en Savoie, en Piémont et dans la Suisse pendant les 8,9, et 10 siècles de notre ère.* Paris, 1836.

H. Zottenberg: *Invasions des Sarrazins dans le Languedoc d'après les historiens, musulmans do Devic et Vaisssette: Hist. général du Languedoc.* Toulouse, 1875 II pp. 549-558

F. Godera: *Estudios Arabes*, vol.

G. Lokys: *Die Kamfe der Arabern mit der Karolingern bis zum Tode Ludwig, II.* Heidelberg, 1906

Lévi — Provençal: *Histoire de l'Espagne Musulmane*, vol. 1 (Le Caire 1944) pp. 37-42.

سبع سنوات متوالية : يقضون الشتاء في البحر — أى في الجزائر — كما تقول النصوص ، ثم يهبون لمهاجمة القسطنطينية من جديد في الربيع والصيف ، ثم يبنى أسطولهم بكارثة كبرى عند مروره فيما بين قبرص والشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى سنة ٥٨ — ٦٧٧ . وفي أثناء هذا الكفاح الطويل سيطر العرب تماماً على شواطئ الجزر الكبرى والصغرى في هذا الحوض الشرقى للبحر الأبيض ، وأخرجوه عن سيطرة البيزنطيين وغيروا الوضع السياسى فيه تماماً . ولم تكن هذه هى أخرى محاولات العرب للاستيلاء على القسطنطينية ، فقد تجدد الجهد فيما بين ٩٦ — ٧١٥ و ٩٨ — ٧١٧ فى عهد سليمان بن عبد الملك ، واستنفد المسلمون جهدهم براً وبحراً دون توفيق .

ولم يحاول المسلمون بعد ذلك الاستيلاء على القسطنطينية ، ولكن شواطئ البحر الأبيض ظلت فى أيديهم . أى أن الدولة الإسلامية اتجهت اتجاهًا بحرياً من زمن مبكر ، وقد انتهى بها هذا الاتجاه إلى شواطئ البحر الأبيض إلى التحول إلى دولة بحرية متوسطة طوال العصر الأموى . وهنا يحسن أن نقف عند هذه الحقيقة ملياً ؛ لأنها تكشف عن ناحية هامة ذات أصداء بعيدة فى تاريخ الدولة الإسلامية .

د — بنو عبد شمس والشام :

عندما ندرس أوليات اتجاه الحركة الإسلامية نحو الشمال ، يبدو لنا أن الهدف الأول كان السيطرة على « روم العرب »^(١) أو العرب المنتصرة^(٢) ، وهى مجموعة من القبائل كانت تسكن المنطقة الواقعة بين حدود الحجاز

(١) انظر مثلاً : الطبرى ، طبعة دى خويه ، ج ١ ، ص ٢١٠١ ، وأبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ٧ .

(٢) ابن الأثير : (ط . نورنبرج) ج ٢ ، ص ٧٩ أو ٢١١ .

والمسعودى : التبيين والإشراف ، ص ٢٣٠ .

الشمالية المتعارف عليها عند كتاب العرب^(١) : جذام وبلى وعذرة وبهراء وكلب ولخم وعاملة ، ومجموعة القبائل القضاعية التى تسمى عادة ببني غسان^(٢) . ونتبين أيضاً أن اتجاه الرسول نحو إخضاع هذه القبائل من زمن مبكر جداً من السنة الخامسة للهجرة — هو الذى أفضى بالعرب إلى الاشتباك بالروم بعد ذلك ، ومن ثم يبدو أن ذلك الاشتباك مع الروم قد جاء مصادفة أو استرسالاً طبيعياً غير مقصود^(٣) .

يبد أن الدارس المحقق لا يسعه إلا أن يتبين أن للموضوع أصولاً أبعد من ذلك ، أصولاً تتصل بعلاقات بعيدة بين فريق من العرب وبلاد الشام ، فريق كانت له بهذه البلاد خبرة ومعرفة قديمتان قبل الإسلام . فلم تكد دولة الإسلام تستقر وتتجه أنظارها إلى التوسع ، حتى اجتهدوا فى توجيهه نحو هذه الوجهة ، ويسروا لجند الإسلام فتح الشام ، وقاموا بعد ذلك بتثبيت أقدامه فيه ، بل عملوا على نقل الدولة الإسلامية كلها إليه ، ذلك هو فريق بنى أمية ، بنى عبدالدار .

ذلك أن جل اهتمام بنى عبدالدار قبل الإسلام كان بشئون التجارة والمال ، تاركين لبني عبدالمطلب ما كانوا يطمحون إليه دائماً من جاه وروحى على العرب يأتيهم من القيام بشئون الكعبة والحجاج . ولقد كانت قریش كلها تسهم فى تجارة الشام ، ولكن بنى أمية كانوا ينظمونها ويوجهونها ويتولون قيادة القوافل الخارجية بالتاجر ، وإذا أخذنا قافلة أى سفیان — التى تعرض لها المسلمون سنة ٢ هجرية فكان من ذلك غزوة

(١) كان جغرافيو العرب يرون أن أقصى مدن الحجاز إلى الشمال هى خيبر وتيماء وفدك ، وأن الشام يبدأ بعد خيبر بقليل ، وكان يرون أن وادى القرى لا يدخل فى حدود الحجاز .

Cf: M.A. Cheira: La Lutte entre arabes et Byzantins (Alexandrie, 1947) p. 20

(٢) المصدر والصفحة .

(٣) راجع عن المناقشة فى هذا الموضوع : De Goeje: Mémoire sur la conquête de la Syrie. 2e éd. Leiden, :

١٩٠٠. ds Mémoires de l'histoire et la Géographie orientales. No 2. p. 10. 2qq.

Caetani: Annali dell Islam. Milan, 1905-1926. anno 5, No. 4.

بدر — أساساً ، رأينا أن معظم أموال غيرها كانت للأمويين وكان رؤساء القافلة كلهم أمويين^(١) ، مما يدل على أن تجارة قريش مع الشام كانت في الواقع أموية^(٢) ، وأن بنى عبدالدار كانوا على صلات وثيقة بالشام ونواحيه ، وكان فيهم ميل نحو الاتجاه نحو هذه البلاد ؛ ومن الطبيعي والحالة هذه أن يكونوا أشد العرب اجتهداً في اجتذاب الإسلام إليه عندما أتحت الفرصة في ظل الإسلام .

وإن المتأمل لأحوال قريش قبل الإسلام ليرى بوضوح أن بنى عبد شمس كانوا دائماً أهل السياسة والتوجيه العام ، في حين كان هم بنى هاشم أمور الكعبة والحجاج وما إليها من المسائل الروحية . وإن الإنسان ليدهش ، عندما يدرس فريقى قريش عندما وقع «حلف الفضول» فيجد أن معظم قادة العرب بعد الإسلام كانوا من فريق الأحلاف الموالين للعيسميين دون الهاشميين^(٣) ، وربما جاء ذلك من اهتمام بنى عبد شمس بالتجارة والسفر ، وهو اهتمام ربما فسر لنا دوافعه ابن هشام بقوله : «إن عبد شمس كان رجلاً سفاراً قلماً يقيم بمكة ، وكان مقلاً ذا ولد ، وكان هاشم موسراً» .

وكانت معظم تجارة عبد شمس ومن معه مع الشام ، وكان لهم عند ولادة البيزنطيين مكان مرموق ، ودليل ذلك ما يقال من أن عثمان بن عفان سفر لقريش عند عامل الروم على بصرى فمنحه لقب «فيلارخوس»^(٤) ، ودليله أيضاً ما حدث بعد الإسلام من سؤال قيصر لأبى سفيان عن حال النبی ، مما

(١) انظر التفصيل في «مغازى الواقدي» ، ط. فون كريم (كلكتا ، ١٨٥٥ — ١٨٥٦) ، ص ١٩٨ .

(٢) لم يأتنا ابن إسحاق بشيء يثبت ما ذهب إليه من أن هاشم بن عبد مناف هو الذى استن للعرب رحلة الشتاء والصيف (ابن هشام : سيرة الرسول ، ج ١ ، ص ١٤٧) لأن ما يذكره هنا لا يتفق مع سياق ثه .

(٣) «أحلاف» بنى عبدالدار — عند الخلاف الذى وقع بينهم وبين بنى عبدالمطلب على الرئاسة بمكة — هم : بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جهم وبنو عدى بن كعب (ابن هشام : السيرة ، ج ١ ، ص ١٤٣) .

(٤) انظر : إبراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون (القاهرة ١٩٥٣) ، ص ٣٤ . وقد استند إلى عبارة لكمر ، وهذا الأخير لم يأتنا بمراجعته .

يدل على أنه كان محل ثقته ، أو أن الروم كانوا يشعرون أنه قريب منهم على أى حال^(١). ولنضف إلى ذلك أن الرسول الكريم كان يطمئن إلى بنى عبدالدار وأحلافهم ويعهد إليهم فى الوظائف الإدارية وشئون الدولة ، وكذلك كان أبو بكر وعمر من بعده ، فضلاً عن عثمان الذى أسرف فى ذلك إسرافاً أدى إلى اتهامه بالميل الصريح لأهل بيته ، وهم بنو أمية وبنو الحكم . وهذه الكفاية فى ذاتها نتيجة طبيعية لاشتغالهم بأمور التجارة والمال ، فإن ذلك يحتاج إلى عقلية عملية دافعية كالإدارة تماماً ، ولا شك كذلك فى أن كفاية بنى أمية فى الأمور الإدارية نتجت عن صلاتهم الطويلة بالروم وترددهم على بلادهم .

فإذا بدأت فتوح الشام رأينا بنى أمية سفیان وأحلافهم — بنى مخزوم وبنى سهم وبنى جمح وبنى عدى بن كعب — فى القيادات والعمالات من أول الأمر ، وخاصة فيما يتصل بالشام منها ، وقد كان الرسول أول من بدأ ذلك ؛ لأنه كان يعلم بما بين بنى أمية والكثير من قبائل عرب الروم — مثل بلى — من القرابة والرحم ، فهو الذى ولى عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر وتبوك وفدك^(٢) ، بل إنه أرسل عمرو بن العاص قائداً على حملة قصدت أرض بلى وعذرة ، وهما من روم العرب ؛ لأن أم عمرو كانت من بلى ، وعندما طلب عمرو المدد أرسل الرسول إليه بعثاً على رأسه أبو عبيدة بن الجراح وفيه أبو بكر وعمرو ، وأصر عمرو بن العاص على قيادة الحملة كلها — رغم ذلك ، فرضخ له أبو عبيدة ، وصلى عمرو به وبعمرو وبأبى بكر ولم يستنكر الرسول ذلك ، علماً منه بما كان لهذا السهمى الشاب من صلات ورحم بأهل الناحية التى يدور حولها الصراع^(٣) .

(١) ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٢) المقرئى : النزاع والتخاصم ، ص ٣٢ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

فإذا استطردنا مع فتوح الشام وجدنا رجالا من بنى أمية وأحلافهم في القيادات من أول الأمر ، بل تبين أبو بكر أن غيرهم لا يصلح لقيادة الحروب في الشام لجهلهم بنواحيه^(١) ، وأن بنى أمية به أعرف ، فبعث يزيد ابن أبي سفيان وأردفه بأخيه معاوية فكان هذا أول الفتح^(٢) . ثم إن المتتبع لسير القتال في الشام واتجاهات العرب والمراكز التي وجهوا إليها همهم ، والمواقع التي اختاروها للقاء ، كل ذلك يدل على أن قادتهم كانوا يعرفون الشام جيدا ، وأنهم كانوا يسرون عن معرفة وخبرة . فإذا ذكرنا أن معظم التوجيه — فيما خلا مسير خالد بن الوليد إلى بصرى — كان بيد يزيد بن أبي سفيان وأخيه معاوية وعمرو بن العاص تبيننا صدق الحقيقة التي ذكرناها عن أن بنى أمية وأحلافهم هم الذين قادوا جيوش العرب في الشام ويسروا لهم فتحه ، لسابق خبرتهم به ومعرفتهم بأموره . ويتجلى ذلك بوضوح عندما نجد يزيد بن أبي سفيان عاملا لعمر على معظم الشام بعد وفاة أبي عبيدة ثم يخلفه على عمالته أخوه الأصغر معاوية . ثم يجمع عمر الشام كله لهذا الأخير ، في نفس الوقت الذي يتجه فيه عمرو بن العاص السهمي — وسهم من أحلاف بنى عبد شمس — لفتح مصر ، أي لاجتذاب المسلمين خطوة أخرى إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط^(٣) .

(١) راجع ما يذكره الطبري عما حدث لخالد بن سعيد بن العاص في أول محاولة للعرب لغزو الشام . (الطبري : تاريخ ، ط . الحسينية بالقاهرة ، ج ٤ ، ص ٦) .

(٢) الطبري : نفس المصدر والصفحة .

(٣) وصلة بنى أمية وأحلافهم بعمالات الشمال والشام منذ كان الإسلام تستوقف النظر ، ففي حركة الردة مثلا بعث أبو بكر خالد بن سعيد العاص بن أمية إلى مشارف الشام ، وأرسل عمرو بن العاص إلى قضاء ، وعندما بدأت حركة الفتوح بعث أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص إلى الشام وأردفه بذي الكلاع وعكرمة ابن أبي جهل وعمرو بن العاص والوليد بن عقبة ، «وعقد ليزيد بن أبي سفيان بن حرب على جيش عظيم هو جمهور من انتداب إليه وجهزه عوضاً عن خالد بن الوليد ، وعقد لأبي عبيدة بن الجراح وبعثه إلى حمص ، وأمد يزيد بن أبي سفيان بأخيه معاوية بن أبي سفيان ومعه جيش ، فنزل أبو عبيدة الحامية ، ونزل يزيد البلقاء ، ونزل شرحبيل بن حسنة الأردن ، وقيل بصرى ، ونزل عمرو بن العاص الغزيات» . ولم يتغير الأمر كثيرا في أيام عمرو ، فولى الشام أبا عبيدة فيزيد بن أبي سفيان فمعاوية ، ومصر عمرو بن العاص» . انظر : المقرئ : النزاع والتخاصم ، ص ٥٥ — ٥٦ .

وليس إلى الشك سبيل في أن علائق بنى عبد شمس بالشام جعلتهم من أصلح العرب لقيادة البعوث الحربية وولاية العمالات ، وتبين ذلك من أن معظم عمال رسول الله ﷺ على النواحي كانوا منهم ، وكذلك كان الحال أيام أنى بكر وعمر . وقد علق على ذلك المقرئى بقوله : « فانظر كيف لم يكن فى عمال رسول الله ﷺ ولا فى عمال أنى بكر وعمر رضى الله عنهما أحد من بنى هاشم ، فهذا وشبهه هو الذى حدد أنياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وقتل أمراهم »^(١) . ويؤكد ذلك مرة أخرى ثم يقول : « فإذا كان رسول الله ﷺ قد أس هذا الأساس ، وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد ، كيف لا يقوى ظنهم ولا ينبسط رجائهم ولا يمتد فى الولاية أملهم ؟ »^(٢) .

أما فيما يتصل بالشام خاصة فللمقرئى رواية تؤيد هذا المعنى الذى قلناه بصورة تستوقف النظر ، قال فى سياق حديثه عن حروب الردة إن أبان ابن سعيد بن العاص بن أمية كان على البحرين ، وكان عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر وتبوك وفدك ، فلما توفى رسول الله ﷺ رجع خالد بن سعيد وأبان وعمرو عن عمالاتهم ، فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « مالكم رجعتن عن عمالاتكم ؟ ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول الله ﷺ ارجعوا إلى أعمالكم » ، فقالوا : « نحن بنو أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله ﷺ أبداً » ، ثم مضوا إلى الشام وقتلوا وقتلوا فى مغازيها ، فيقال : « ما فتحت بالشام كورة من كور الشام إلا وجد عندها رجل من بنى سعيد بن العاص ميتاً »^(٣) .

(١) نفس المصدر ، ص ٥٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٧ — ٤٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٦ . ولابن الأثير رواية غريبة تدل على أن أبا سفيان وشيعة كانوا حتى بعد إسلامهم أميل إلى الروم منهم إلى العرب ، فقد كانوا أثناء وقعة اليرموك يفرحون إذا مال الروم على العرب . والرواية — ولو أنها عن عبد الله بن الزبير ، وهو مشكوك فى رواياته دائماً — إلا أنها ذات معنى خاص . ابن الأثير : الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

هـ — أثر علاقات بنى أمية بالشام في توجيه الدولة الإسلامية نحو البحر :

وخلاصة هذا الكلام أن فرع عبد شمس من قريش اتجه بسبب المنافسة مع بنى عبدالمطلب — إلى شئون التجارة والأسفار وأنفق همه فيها ، وأنه صرف جهوده نحو الشمال ، فاتصل بروم العرب — أو العرب الضاحية — وارتبط بهم بعلاقات مختلفة ما بين تجارة وصداقة وحلف ، ثم اتصل هذا الفرع بالشام وعربه ورومه ، وارتبط مع هؤلاء الأخيرين بعلاقات بعيدة المدى ، جعلته في موضع الحليف منهم ، وأن أفراد هذا البيت اتخذوا هذه الصداقة مع الروم وسيلة لتيسير شئون تجارتهم المكية التي كانوا يقومون عليها ، وأثروا من وراء ذلك واقتنوا الضياع لا في الحجاز فقط بل في الشام أيضاً ، إذ كانت لأنى سفيان ضيعة في البلقاء في موضع يسمى بقبش ، وأن هذه الخبرة التجارية ولدت في أفراد هذا البيت خبرة سياسية جعلتهم أصلح العرب للحكم والإدارة وقيادة الجيوش ، وتجلي ذلك بوضوح على أيام أنى سفيان بن حرب عمدة هذا البيت وقائده في الكفاح أيام الإسلام الأولى .

وكان سر عداوته وعداء أفراد بيته للإسلام هو الخوف على المصالح التجارية وتلك الرياسة التي صارت لهم على قريش وعلى العرب تبعاً لذلك ، وقد نظروا للإسلام من أول الأمر نظرة مادية موضوعية ، فلم ينتهبوا للنواحي الروحية العاطفية فيه ، وظلوا على ذلك حتى وجدوا الإسلام يقتطع منهم أحلافهم ؛ من روم العرب ، ثم فتحت عليهم مكة وانهمزوا جملة ، فرأوا أن الإسلام قوة لا قبلَ لهم بها فسلموا له ودخلوا فيه عن إيمان قليل أو منعدم . فلما صاروا في رحاب الإسلام نفعتهم خبراتهم التجارية والسياسية ، وتنبه إليها الرسول عليه الصلاة والسلام فعهد إليهم في العملات وقيادة البعوث ، ووجد في ذلك وسيلة لإيلاف قلوبهم ، حتى أبو سفيان — على لده وعداوته وقلة إيمانه — ولاه عمالة كبيرة استثلاً له من ناحية وانتفاعاً بخبرته من ناحية أخرى .

وتبينت كفاياتهم مع الزمن ، فثبتت أقدامهم في الوظائف وشئون الدولة . وعندما تولى أبو بكر استمر على ثقته فيهم ، جرياً على عادته من المحافظة على سنن الرسول من ناحية ، وانتفاعاً بخبرتهم من ناحية أخرى ، ثم غناء بهم عن بني عبد المطلب وكانوا مُزَوَّرِينَ عنه . ثم جاء عمر ، رجل الدولة الإسلامية ، ففطن إلى مزايا أفراد هذا البيت في الإدارة والحرب ، فأولاهم ثقته ومضى معهم على ما كان عليه أبو بكر ، وحرصوا هم منذ أيام أئى بكر على توجيه نظر الدولة نحو الشام ، وكانوا به أعرف ولهم بأهله علاقات قديمة موصولة ، ومن ثم نجد أبا بكر يضع شبابهم في قيادات بعوثة ، وأحسن عمر أنهم قادرون على أداء خدمة كبيرة للدولة الإسلامية في هذه الناحية ، فأولاهم ثقته وولى الكثيرين منهم قيادات فتوح الشام . وزادت فرصتهم اتساعاً عندما عزل خالد بن الوليد وتوفى أبو عبيدة بن عامر الجراح ، فلم يبق في الميدان غيرهم .

وبفضل خبرتهم بالشام وملكاتهم الحربية والسياسية تم فتح هذا القطر في سرعة لم يكن يتوقعها أحد ، وكان واحد منهم — يزيد بن أئى سفيان — أول حاكم مسلم للشام ، ثم خلفه أخوه الأصغر معاوية ، وبه يصل الاتجاه الشامى للبيت الأموى ذروته ، وفي أعماله تتجلى كل الخصائص السياسية العملية التجارية التى امتاز بها رجال هذا البيت ، فعمل من أول الأمر على أن يصبح الشام قطراً أموياً ، ثم اجتهد فى أن يجعل الدولة الإسلامية كلها دولة أموية ، ولم يكن ذلك ميسوراً إلا بنقلها إلى الشام وجعلها دولة شامية بحرية ، وسنفصل هذا الكلام فى الأسطر التالية .

و — الاتجاه البحرى للأمويين :

وعندما يتتبع الإنسان أعمال معاوية منذ أصبح والياً على الشام ، يدesh من اهتمامه بأمر السواحل والثغور البحرية ، فهو الذى فتح قيسارية سنة

١٩ هـ — بعد أن عجز عمرو بن العاص ويزيد بن معاوية عن فتحها^(١) ثم فتح عسقلان^(٢) بل تجشم عناء الخروج بنفسه وزوجه معه لفتح قبرص ، بعد أن رفض عثمان الإذن له في فتحها إلا على هذا الشرط^(٣) . وإصرار معاوية على فتح هذه الجزيرة وإلحاحه في ذلك حتى وفق إليه لايخلو من الدلالة على اهتمامه بالبحر وشئونه ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين « لم يركبوا بحر الروم قبلها »^(٤) أتينا ناحية أخرى من جوانب فضل بنى أمية في تمكين المسلمين من أمر البحر الأبيض ، فقد كانت هذه الحادثة فاتحة لسيادة المسلمين على مياه ذلك البحر .

والمعنى الذى يستنتجه الإنسان من حملة قبرص هو أن المسلمين أصبح لهم أسطول وصل في بعض حملات قبرص إلى ٥٠٠ سفينة ، وليس من المعقول أن يكون المسلمون قد بنوا هذه السفن أو أنشئوا « دار صناعة » لعمارتها في موانئ الشام ، فهى لاشك سفن أهل السواحل مما كانوا يستعملونه أو كان الروم يستعملونه . ولاشك أن المسلمين عندما استولوا على موانئ مثل أنطاكية وقيسارية وعسقلان قد استولوا كذلك على ما خلفه الروم في مرافئها من سفن ، فأجروها بمن كان يجرى بها من أهل تلك البلاد قبلا .

ومن أسف أن المراجع لم تزودنا بشيء من المعلومات في هذه الناحية ، ولهذا فنحن لانستطيع القول بنشأة دور الصناعة الإسلامية في ذلك التاريخ المبكر ، ولم يبق إلا أن نسلم بما ذهب إليه هويد وييرين من أن المسلمين استعملوا سفن أهل البلاد أو السفن التى خلفها الروم ، أو عهدوا إلى أهل السواحل في ابتناء سفن لهم ، وعلى أى الأحوال لم تكن أساطيل المسلمين

(١) البلاذرى : فوح (القاهرة ١٩٣٢) ، ص ١٤٥ — ١٤٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٩ — ١٥٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٥٧ وما بعدها .

(٤) نفس المصدر ، ص ٥٧ .

الأولى إسلامية إلا من حيث المقاتلة الذين دخلوا فيها للحرب والفتح .
وكلمة أسطول نفسها يونانية Stolos ، وكان المسلمون يحاربون في البحر
بنفس أسلوب حربيهم في البر ، أى بالرمى بالسهم والحرب والحجارة في
بعض الأحيان ، فإذا أعياهم الأمر رموا خطاطيف تتشبث بسفن العدو ثم
جذبوها إليهم ، حتى إذا تلاصقت السفن تحولت المعركة إلى معركة
برية (١) .

يبد أننا ينبغي أن نلاحظ أن معظم استعمال الأسطول الإسلامي — أول
الأمر — كان لنقل الجند لا للاشتباك في القتال في عرض البحر ، ودليلنا على
ذلك قلة ما لدينا من أخبار الوقائع البحرية بين المسلمين والروم : كانت
خطة المسلمين في السيطرة على البحر تتفق مع طبيعتهم ، وهى الاستيلاء على
الشواطىء والموانى ، وإلى تلك الخطة ترجع محاولاتهم العديدة للاستيلاء على
القسطنطينية ، لأنها كانت في نظرهم مركز الأساطيل الرومية التى تعترض
سفنهم في البحر وتهدد شواطئهم ، وكانوا يرون أنهم إذا وضعوا أيديهم عليها
كفوا أنفسهم هذا الشر .

وعلى طول أيام معاوية نلاحظ اهتمامه العظيم بالشواطىء والموانىء كأنما
كانت تسيره فى نشاطه هذا فكرة معينة ؛ فبينما نجد ثغور الشام البرية — أى
المفضية إلى آسيا الصغرى — من فتوح رجال كأبى عبيدة بن الجراح
وميسرة بن مسروق العبسى وعياض بن غنم وغيرهم من الفاتحين ، نجد
سواحل الشام كلها — عدا أنطاكية — من فتوح معاوية . بل يبلغ اهتمامه
بأمر البحر مبلغ المخاطرة بغزو جزره ، فقد رأينا كيف فتح قبرص ، ثم أرسل
معاوية بن حديج الكندى فقام بأول محاولة إسلامية لفتح صقلية ، وفى هذا
المقام يقول البلاذرى : « وكان معاوية بن أبى سفيان يغزى براً وبحراً . فبعث
جنادة بن أبى أمية الأزدي إلى رودس — وجنادة أحد من روى عنه

(١) انظر تفاصيل موقعة ذات الصواري ٣٤ هـ - ٦٥٥ م : الطبرى ، ج ٥ ، ص ٦٩ وما يليها .

الحديث ، ولقى أبا بكر وعمر ومعاذ بن جبل ، ومات في سنة ثمانين — ففتحها عنوة ، وكانت غيضة في البحر ، وأمره معاوية فأنزلهما قوماً من المسلمين ، وكان ذلك في سنة اثنتين وخمسين ... وفتح جنادة بن أبي أمية في سنة أربع وخمسين أرواد ، وأسكنها معاوية المسلمين ، وكان ممن فتحها مجاهد وتبيع بن امرأة كعب الأحبار ، وبها أقرأ مجاهد تبياً القرآن ... وفتح جنادة قريطش ، فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم أغلق ، وغزاها حميد ابن معيون الهمداني في خلافة الرشيد ، ففتح بعضها ، ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالإقريطشي ، وافتتح منها حصناً واحداً ونزله ، ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم أحد ، وأخرب حصونهم»^(١).

وقد مضى بقية خلفاء بني أمية على سنن معاوية من الاهتمام بالشغور وحمايتها فوجد هشام بن عبد الملك ينشئ دار صناعة في صور ، ونجد بني مروان يحولون هذا البلد إلى ميناء بحري^(٢) ، وغير ذلك كثير .

وإلى جانب ذلك نجد بني أمية — على كثرة مشاغلهم وتوالي ثورات العرب عليهم — ملتفتين إلى البحر وشئونه لا يكاد يصرفهم عن ذلك شيء ، فهذه الحملات الكبرى التي قاموا بها على القسطنطينية وقعت في فترات كانت الثورات عليهم فيها على أشدها في العراق والجزيرة العربية . وفي نفس هذه الظروف أيضاً أرسلوا الحملات التي فتحت المغرب والأندلس وما وراء ذلك ، ولو قوم غيرهم لرصدوا هذه القوات كلها على تثبيت أمرهم في تلك البلاد المشرقية التي جاءهم منها البلاء فيما بعد .

وقد كانت خطتهم فيما يتصل بالجزيرة العربية والعراق أن يعهدوا في أمرهما إلى رجال أشداء يحكمونها بالعسف والقهر ، كأنما كان لا يعينهم من

(١) البلاذري : فتوح ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٢) Hitti : Origins of the Islamic State (New - York, 1916) pp 180 - 181 .

أمر هذه الولايات إلا أن يسكن كل شىء فيها ويقر كما هو ، أما أن يعنوا بأهلها ويصرفوا إليها جانباً من العناية الحقيقية فلا . وولاتهم على العراق كانوا جبابرة يمتازون بالعنف والقسوة دون أى شىء آخر كالمغيرة بن شعبة وزباد بن أبيه والحجاج بن يوسف ، فأما خيرة رجالهم ، أما الولاة الممتازون الذين يفكرون فى إنشاء أو إصلاح فنجدهم فى ولاياتهم الغربية : مصر والمغرب والأندلس . هناك تجد عمرو بن العاص منشئ القسوط ، وعقبة ابن نافع منشئ القيروان ، وحسان بن النعمان منشئ تونس ، وعبد الرحمن الغافقى الذى يصور المجاهد المسلم فى أجمل صورة ، والسمح بن مالك الخولانى الذى عاجل شغب عرب الأندلس على أسلوب من الرفق والإنسانية والعدالة لانجده عند أحد من ولاة المشرق .

بل إننا نجد بنى أمية يعهدون فى حكومات ولاياتهم المغربية إلى رجال من بيتهم مبالغة منهم فى إظهار اهتمامهم بهذه الناحية ، فتولى مصر اثنان من رجال البيت الأموى ، فى حين لم يتول العراق إلا واحد فقط هو مسلمة بن عبد الملك ، بل إننا نجد خلفاء بنى أمية يرسلون أولادهم للاشتراك فى فتوح المغرب ، فنجد عبد الملك بن مروان مثلاً يشترك - وهو بعد أمير صغير - فى فتح جولاء (فى إقليم تونس) وهذا كله يدل على عناية خاصة بالجزء الغربى من الدولة - وهو الجزء البحرى منها - واهتمام بشئونه . وليس من قبيل المصادفات البحتة أن يكون الأمويون هم الذين استولوا على شواطئ هذا البحر وما استطاعوا الاستيلاء عليه من جزائره ، بحيث نستطيع القول إن الدولة الإسلامية كانت على أيامهم دولة بحرية متوسطة من حيث الامتداد الجغرافى والاتجاه العام .

ز - الدولة الأموية ، دولة بحرية متوسطة :

فإذا نحن تأملنا الروح العام الذى كان يسير الدولة الإسلامية خلال العصر الأموى ، لاحظنا بوضوح أنه أقرب إلى روح البحر الأبيض الذى

ورثته فيما كان لها من ملك ، وربما استطعنا عند التدقيق أن نجد أوجهاً من الشبه بين أسلوب الحكم وطريقة خلفاء الأمويين في الإدارة ونظرة رجال الدولة إلى أعمالهم وبين هذه النواحي في دولة كالدولة الرومانية . ومعاوية نفسه - إذا نظرنا إليه ودرسنا سياساته - تبين أنه كان بعيداً بعداً ظاهراً عن الروح البدوى الحقيقى ، وأقرب مايكون إلى مانعرفه عن أهل السياسة والتدبير من رجال دول البحر الأبيض قبل الإسلام . فهذا الرجل المضرى الأصيل مازال يسعى حتى كسب بنى كلب اليميين إلى جانبه ، بل جعلهم في المرتبة الثانية بعد أفراد البيت السفينى ، وفضلهم بذلك على مضر أجمعين وهم أهله ، وتخلّى بذلك عن أبسط تقاليد البداوة وهو فى الذؤابة منها .

ولم يكن بنو كلب أكثر قبائل عرب الشام عدداً بل كانوا أقربهم إلى الروم ، وكانوا عماد بنى غسان ، وكانوا أحلاف الرومان والبيزنسيين ؛ ولهذا كانوا ذوى ملكات اقتصادية عمرانية جعلتهم من أصحاب الأراضي والضياح والمتاجر فى الشام ، ثم هم بعد ذلك يمنيون من عرب الجنوب ، وعرب الجنوب كانوا - على طول التاريخ الإسلامى - أهل حضارة ومال وثقافة ، وإن لم يكونوا دائماً من أهل الحكم إذ غلبتهم عليه فى معظم النواحي مضر . والتفات معاوية إلى هذه الناحية من أظهر دلائل كياسته وبعد نظره وتفكيره السياسى ، وكان كذلك له أبعد الأثر فى توجيه الدولة الأموية كلها توجيهاً بحرياً حضارياً .

ومن هذا القبيل ميل معاوية إلى الثقفين من أهل الطائف ، وثقيف من قحطان أيضاً ، وقد أمدت البيت الأموى بطائفة من أقدر رجاله وأنصاره منهم المغيرة بن شعبة وزيد بن أبيه والحجاج بن يوسف وعبيد الله بن زياد ومحمد بن القاسم فاتح السند . نعم إن الخليفة الأموى كان ذا ظاهر بدوى يؤثر العيش فى قصور البادية على المقام فى دمشق ، وينزع إلى ما كان أجداده فى الجاهلية يميلون إليه ، ولكنه كان فى الروح أقرب إلى أباطرة الرومان منه إلى أكاسرة الفرس وعواهل الآسيويين . كان كبار خلفاء الأمويين ينظرون

إلى مصالح الدولة وخيرها نظرة رومانية ، رغم ما كان يبدو من استهتار بعضهم وميلهم إلى المتاع ، ومجالسهم - كما يصورها أبو الفرج الأصفهاني - لم تكن مجرد مجالس أبهة ومظاهر دينية سلطانية كما ستكون مجالس العباسيين ، بل مجالس ملوك معينين بشئون الدولة وأمور الرعايا كافة .

فإذا تركنا الخلفاء ونظرنا في أحوال الدولة الإسلامية عامة أيام الأمويين تبيننا ملامح « رومانية » أخرى حقيقة بأن تستوقف النظر ، وهى تعيننا على تصوير مانحن بسبيله من دراسة مدى تأثر الدولة الإسلامية خلال العصر الأموى ببيئة البحر الأبيض التى قامت فيها . ومن أظهر هذه الملامح الدور السياسى الذى كانت تقوم به المساجد فى هذا العصر . فقد وصف فلها وزن « المسجد » فى العصر الأموى بأنه كان « فوروم »^١ Forum الإسلام ، وهو وصف يلفت النظر إلى طبيعة المساجد ودورها فى الحياة السياسية للأمة العربية فى العصر الأموى : لم يكن المسجد إذ ذاك مجرد مكان للصلاة بل كان مجمع المسلمين ومنتداهم وملجأ الفقير منهم ومجمعهم السياسى . كان الناس إذا اختلفوا فى أمر من بلى أمرهم تنادوا للاجتماع بالمسجد ، وهناك يتداولون فى الأمر ويقررون رأيهم فيه كما كان الرومان يفعلون فى الفوروم^(١) وكان عامل البلد إذا دخلها توجه إلى المسجد وأعلن تعيينه من على المنبر ، وكان هذا الإعلان يعتبر إقراراً من الناس لولايته ، بل كان العمال إذا أرادوا إبلاغ الناس شيئاً دعوا الناس إلى المسجد ليبلغوا إليهم ما يريدون وينصرف الناس بعد ذلك دون صلاة جامعة ، وكان العامل يبدو للناس فى هيئة الحاكم لا الإمام : يحيط به الشرط فى صحن الجامعة والسيوف مشرعة بأيديهم ، والعامل يتكلم وسيفه أو قوسه بيده .

(١) Cf. Wustenfeld: Chroniken der Stadt Mekka, II, p. 168. Lammens, Mo'awia, pp. 204-208.

ولم تكن للمساجد محاريب إذ ذاك ، بل منابر فقط يتحدث عليها الحكام وقتما يشاءون ويقرعون الخطب في مناسبات الصلوات الجامعة ؛ بل إن رجالاً كالمغيرة بن شعبة وزيايد بن أبيه كانوا يستعملون المسجد مكاناً للحكومة ، فيجلس الواحد منهم على كرسيه في صدر المسجد ويتحدث إلى الناس ويقضى في أمورهم كأنه في مجلس حكم لا في مسجد .. وكل أولئك يميل بنا إلى الظن أن الأمويين عندما خلفوا أباطرة الرومان في الشام ، واحتوتهم هذه البيئة المتوسطة بتقاليدها القديمة في الحكم ، استعملوا المساجد كمجمع للناس وموضع اتصال بهم كما كان الأمر في الفوروم الروماني^(١) وسيختفى ذلك تماماً في العصر العباسي ، سيتحول المسجد إلى موضع صلاة فحسب ؛ لأن العباسيين أقاموا ملكهم على فكرة أخرى ، فكرة الكسروية الآسيوية ، وهي لا تعترف بالرعية ولا تسعى إليها ولا تحفل بالاتصال بها .

بل إن عمال الأمويين - إذا تأملنا تصرفاتهم - وجدناهم أشبه بقناصل الرومان : رجال في خدمة الدولة ينفذون أوامرها في طاعة ونظام يستوقفان النظر ، رجال لا يفكرون في الخروج على الدولة والعمل لحسابهم كما سيكون عمال بني العباس ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فهذا موسى بن نصير معتمصم في الأندلس ثم يستدعيه الخليفة ليحاسبه حساباً عسيراً ، فيسير إليه في طاعة واستسلام ، ويسأله بعض أصحابه عن السبب في إلقائه بيد الطاعة ، ولو شق عصاها لما بلغ الخليفة منه شيئاً فيقول : « والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي طرفاً ، ولكن آثرت الله ورسوله ، ولم نر الخروج على الطاعة والجماعة »^(٢) وهذا زيايد بن أبيه يضع في العراق نظاماً صارماً هو أقرب مايكون في دقته وحزمه إلى نظم الرومان ، ويكفي أن نورد هنا قوله لحاجبه : « وليتك حجاتي وعزلتك عن أربع : هذا المنادى إلى الله في

(١) انظر عن ذلك : Lammens: Etudes sur le siècle des Umayyades (Beyrouth, 1930), pp. 56 sqq.

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب (طبعة ذو زى) ج ٢ ، ص ٢٠

الصلاة والفلاح ، لا توقفه عنى ولا سلطان لك عليه ، وطارق الليل لا تحجبه ، فَشَّرَ ما جاء به ، ولو كان خيراً ما جاء في تلك الساعة ، ورسول صاحب الثغر ، فإنه إن أبطأ ساعة فسد عمل سنة ، وصاحب الطعام ، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد ^(١) وهذا الحجاج بن يوسف ، مضرب المثل في الحزم والقدرة الإدارية ومراعاة شئون الدولة على أسلوب قناصل الدولة الرومانية لا على أسلوب العواهل الآسيويين . وغير ذلك كثير مما يضيق عنه مجال هذا البحث .

وخلاصة هذا الكلام أن بني أمية ، إذ نقلوا مركز الدولة الإسلامية من الحجاز إلى الشام ، لم يقتصر الأمر على تغيير موضع المركز ، بل تغيير الاتجاه كله للدولة الإسلامية عامة . نعم إن هذا التحول بدأ من أيام أوى بكر وعمر ؛ لأن فتوح الشام ومصر بدأت وتمت في أيامهما ، ولكن أثر بني أمية وأحلافهم في تيسير هذه الفتوح بالذات واضح لا يحتاج إلى بيان . وقد حرص معاوية منذ استقر له الأمر في الشام على أن يوجه الدولة كلها وجهة غربية متوسطية ، وجرى على هذا السنن من أتى بعده من خلفاء بني أمية ، أى أن الدولة الإسلامية ، التى نشأت قارية وظلت في محيط صحراوى على عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، تحولت بعد انتقالها إلى الشام إلى دولة بحرية ذات طابع متوسطى واتجاه نحو البحر وعناية بشئونه . وعلى أيديهم تمت سيطرة المسلمين على الشواطىء الشرقية والجنوبية والغربية من هذا البحر وعلى جانب كبير من جزائره ، أى أنهم هم الذين كسروا الوحدة التاريخية القديمة لهذا البحر ، وحولوه من بحيرة داخلية في نطاق العالم اللاتينى اليونانى إلى حد بين ذلك العالم وعالم آخر جديد ، وهو العالم الإسلامى المشرق ^(٢) .

لم تعد حدود العالم الغربى هى السفوح الجنوبية لجبال الأطلس ومشارف الصحراء الليبية وحدود النوبة كما كان الحال قبلا ، وإنما أصبحت حدود هذا

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد (ط ، بولاق ١٢٩٢) ج ٢ ، ص ٦

(٢) Oscar Halecki: The Limits and Divisions of European History (London and New York, 1950).

العالم الغربى هى الشواطىء الجنوبية لغالة وشواطىء إيطاليا والأطراف الجنوبية لشبه جزيرة البلقان والجزائر الواقعة فى مدخل بحر إيجه ، وما عدا ذلك من أحواض هذا البحر ومياهه أصبح تحت سلطان المسلمين .

لم تعد السفن الرائحة إلى شواطىء أوروبا والغادية منها تنتقل فى حرية من شواطىء الشام ومصر والمغرب إلى ما شاءت من شواطىء أوروبا صادرة بالتاجر واردة بالخيرات . وخيم على شواطىء غالة الجنوبية وإيطاليا الشرقية سكون ، إذ لم تعد هناك سفن تذهب أو تجىء ، فيما خلا انتقالات محلية من ميناء إلى ميناء مجاور ؛ وأصبحت سفن المسلمين تخرج من الشام إلى مصر والمغرب والأندلس فى أمن تام ، وهذا ما يعبر عنه بأن البحر الأبيض المتوسط تحول إلى بحيرة إسلامية ، وهو تعبير واسع بعض الشيء من ناحيتين : الأولى أن ذهاب أمر الأمويين وانتقال الأمر إلى العباسيين حال بين المسلمين وبين استكمال السيادة على مياه البحر ، والثانية أن الشعوب الإسلامية نفسها لم تحسن استغلال هذا الوضع ، لأسباب يتصل بعضها بنظرة الدول الإسلامية إلى التجار واستهانتها بأمورهم ، مما زهد الناس فى المتاجرة وجمع المال ، ويرجع بعضها الآخر إلى نفور طبيعى من هذه الأمم للبحر وركوبه ؛ وسنفصل هاتين الناحيتين بقدر ما يسمح المقام فى أطواء هذا الكلام .

وقد عبر جود فروا ديموميين عن ذلك الذى قلناه تعبيراً دقيقاً فى حديثه عن الانتقال من الأمويين إلى العباسيين ، قال : « ولقد كان الشام الأموى مسنداً ظهره إلى البحر الأبيض ، مواجهاً الخصم الوحيد الخطير الذى قام فى وجهه : الإمبراطورية البيزنطية . وكان يبدو أن مصادر هذا الشام فى ذلك العصر الأموى كانت متوسطة ، ولكن موارده كانت قليلة ، وقد كان لا بد له حتى يستطيع إقامة كيان نفسه واستكمال مظاهر الدولة من الاستعانة بموارد وادى النيل^(١) . وقال فى موضع آخر : « ولقد ظهر التغير فى الاتجاه المادى والمعنوى

(١) Gaudeforty-Demombynes et P'atanov: Le Monde Musulman et Byzantin Jusqu'aux Croisades (Paris. 1931), p. 270.

للخلافة بصورة واضحة منذ صارت الخلافة إلى بنى العباس ، وتجلى ذلك بنقل العاصمة من دمشق إلى العراق . لقد كان للخلافة الأموية ميل للشئون المتوسطية ، وأتاح فتح صقلية على بنى الأغلب أمام الإسلام سبلاً جديدة إلى الغرب ووضع في أيدي أهله إمكانات جديدة . أما الخلافة العباسية فكان وجهها إلى المشرق ، وإذا صح ما يقال من أن البرامكة فكروا في فتح القسطنطينية وسيادة الحوض الشرق للبحر الأبيض ، فإن هذا كان اتجاهها سياسياً لم يقدر له من العمر أكثر مما قدر للبرامكة أنفسهم . وابتداء من القرن التاسع الميلادي ، أصبح موقف الخلافة سلبياً دفاعياً فيما يختص بالإمبراطورية البيزنطية . من ذلك الحين كانت الخلافة العباسية آسيوية خالصة ، وسيتجه نشاطها التجاري نحو الخليج الفارسي وبحار الهند ، وسيكون اتساع أراضيها في نواحي آسيا الوسطى . ولكن ، حتى في هذا الاتجاه لم توفق الإمبراطورية الإسلامية إلى الاحتفاظ بتوازنها أو بتجانسها^(١) .

ح — الدولة العباسية وطابعها الآسيوي :

وهذا الذي أشار إليه المستشرق الفرنسي الكبير موجزاً ، ينطوي على حقيقة كبرى من حقائق التطور العام لتاريخ الدولة الإسلامية . فإن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يكن مجرد انتقال السلطان من بيت إلى بيت أو انتقال العاصمة من بلد إلى بلد ، بل كان في الواقع نقلاً للدولة الإسلامية كلها من عالم إلى عالم : من عالم البحر الأبيض إلى عالم آسيوى يختلف عنه من كل ناحية . كان وجه الدولة إلى الغرب ، وكانت همومها هموماً بحرية غربية ، وكان بناؤها يعلو ويتكامل في محيط هيليني روماني ، وأهلها يقتطعون كل يوم قطعة من أرض الإغريق والرومان القدامى ويضيفونها إلى أرضهم بما فيها ومن فيها ، وكان الهدف الأخير للدولة هو الحلول محل القسطنطينية وروما في آن واحد ، أي محل الإمبراطورية والمسيحية ، والسيادة على البحر الأبيض كله .

G. Demombynes, op. cit. pp. 271-272. (١)

وقد كان هذا الاتجاه بعيد الأثر في كيان الدولة كلها على عهد الأمويين . ثم تغير هذا كله بعد انتقال الدولة إلى العراق ، من العالم البيزنطي إلى العالم الفارسي ، فكان لهذا الانتقال أبعاد الأثر على مصائر الدولة الإسلامية الشرقية : لم يعد الخليفة رجل دولة يجتهد في إثبات كفايته بجهد على طريقة أباطرة الرومان والبيزنطيين ، بل أصبح خليفة كسروياً يلي الملك بحق إلهي على طريق عواهل فارس ، وظهر نظام الوزارة بمعناه الفارسي القديم ، وأصبح هدف الدولة الأخير هو المال والجباية ، وأهملت الدولة أملاكها الغربية فانفصل عنها الأندلس والمغرب الأقصى ، وتنازلت عن المغرب الأوسط وإفريقية (تونس) لبنى الأغلب لقاء قدر معين من المال ، وعهدت في أمور مصر والشام إلى ولاية هم أقرب ما يكونون إلى مرازمة الفرس القدماء ، مهمتهم الوحيدة هي الالتزام بأداء المال المستحق على البلدين ، وأهملت شواطئ الشام واقترب البيزنطيون من حدوده الشمالية شيئاً فشيئاً ، وانتهى الأمر باستيلائهم على أنطاكية وطرابلس ، وعاد جانب كبير من تجارة الحوض الشرقي للبحر الأبيض إلى أيدي البيزنطيين شيئاً فشيئاً ، وهكذا : تصفية حقيقية للجناح الغربي من الدولة الإسلامية .

وإذا كان المسلمون قد فتحوا صقلية في العصر العباسي فإن التي قامت بذلك كانت دولة إسلامية غربية هي دولة بني الأغلب ، وإذا كان المسلمون قد فتحوا جزيرة كريت في هذا العصر أيضاً ، فإن الذين قاموا بذلك كانوا جماعة من الأندلسيين كما سنرى . وقد عدلوا باستيلائهم على هذه الجزيرة كفة التوازن بين الإسلام والنصرانية في شرق البحر الأبيض المتوسط بعض الشيء ، أي أن الخلافة الإسلامية الشرقية نفضت يدها من شئون البحر الأبيض وخرجت من ميدانه جملة وأخذت آسيا تبتلعها رويداً رويداً .

وليس أدل على هذه الناحية الأخيرة من أن الدولة الإسلامية نظرت إلى الشواطئ على أنها حدود ونهايات ينبغي حمايتها ، لا أبواب وثغور يمكن الاعتماد عليها في سيادة مياه البحر والقفز منها إلى ما وراء البحر من بلدان . لقد كان العصر الأموي عصر تعريف الدولة الإسلامية بعالم البحر الأبيض

وتمليكها إياه وتحصين هذه الشواطئ لصالحها ووضع نواة الأسطول الإسلامي ، وكان ينبغي أن تنتقل الشعوب الإسلامية بعد ذلك إلى الطور الثاني ، طور السيطرة الفعلية على مياه ذلك البحر والاستفادة منه كطريق للمواصلات والتجارة كما فعلت الدولة الرومانية ، ولكن التغير المفاجيء للأحوال في العالم الإسلامي وانتقال الأمر إلى العباسيين واتجاه الدولة نحو آسيا ، كل هذا أوقف ذلك التطور وحال بين المسلمين وبين الاستفادة الكاملة من تلك السيطرة التي صارت لها على شواطئ هذا البحر الغربية والجنوبية والشرقية ومعظم جزائره .

ط - أدوات السيادة البحرية ، تحصين الشواطئ وإنشاء الأساطيل :

والآن وقد ألمنا بالدوافع التي دفعت بالدولة الإسلامية إلى شواطئ البحر الأبيض ، وتبعنا انتقالها إلى الشام واستقرارها في بيئة متوسطة وأثر ذلك على طبيعتها ، ندرس العدة التي اعتمدت عليها الدولة في حماية شواطئها من الغارات وسيادة أحواض هذا البحر .

وضعت الدولة الإسلامية يدها على جزء كبير من شواطئ البحر الأبيض خلال عصر الراشدين : شواطئ الشام ومصر حتى برقة ، ولم يكن للدولة الإسلامية إذ ذاك خبرة بشئون البحر ولا أدوات للانتفاع به ، فاعتبرته - كما قلنا - حدوداً ينبغي تحصينها من غارات الأعداء ، وكان الخطر إذ ذاك من ناحية البيزنطيين عظيماً ، إذ كانت لهم الأساطيل القادرة على مهاجمة شواطئ المسلمين ولديهم الرجال ذوو الخبرة بالملاحة البحرية ، ولهذا « كان الساحل بالنسبة للبيزنطيين حداً تسهل مهاجمته ، في حين أنه كان بالنسبة للمسلمين خط دفاع بالغ التعرض للخطر » ، وقد « أتاح خلو يد المسلمين - بطبيعة الحال - من أسطول عرنى ميزة كبرى لعدوهم عليهم .. وبينما اتجه البيزنطيون

إلى الانتفاع بما عندهم من المزايا ، اجتهد المسلمون في تلافي نواحي الضعف من جبهتهم وسد ثغراتها « (١) .

وكان أول ما فعلته الدولة الإسلامية لإدراك هذه الغاية ، هو تحصين السواحل وتعمير محارسها ومسالحها وشدها بالرجال ، حتى تكون على الأهبة لرد كل عدوان يأتي من ناحية الروم ؛ وتلك كانت سياسة الدولة الإسلامية أثناء خلافتي عمر وعثمان ، وقد تولى تنفيذ أعظم جانب منها معاوية بن أبي سفيان في الشام وعمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي سرح في مصر . فنقرأ في النصوص كيف أن المسلمين اهتموا بـم حصون بلاد الساحل ، كاللاذقية والبلدة وطرابلس وصور وصيدا وعرقه وجبيل وبيروت وشدها بالحاميات القائمة . ويعبر عن ذلك البلاذري بقوله : « وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها من قد يحتاج لها إليه من المسلمين ، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الأمداد . فلما استخلف عثمان بن عفان رضى الله عنه كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ، ففعل » (٢) . ويزيد ذلك بياناً في موضع آخر بقوله : « وحدثني أبو حفص عن سعيد بن عبد العزيز ، قال : أدركت الناس وهم يتحدثون أن معاوية كتب إلى عمر بن الخطاب بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل ، فكتب له في مزمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها . ولم يأذن له في غزو البحر ، وأن معاوية لم يزل بعثان حتى أذن له في الغزو بجرأ ، وأمره أن يعد في السواحل - إذا غزا أو غزى - جيوشاً سوى من فيها من الرتب ، وأن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهلها من المنازل ويبنى المساجد ويكبر ما

(١) M.A. Cheire: La Lutte entre Arabes et Byzantins (Alexandrie, 1947) p. 85.

(٢) البلاذري : فوح البلدان ، ص ١٣٨ . وانظر الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب بقلم فيليب حتى : Ph. Hitti:

Origins of the Islamic State (Princeton, 1916) p.202.

كان ابنتى منها قبل خلافته . قال الوضين : ثم إن الناس - بعد - انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية » (١) .

واتبع المسلمون نفس الخطة في مصر في هذا الدور الأول من سياستهم البحرية ، فوجدهم يعنون برم حصون الإسكندرية و«السواحل» ، والمراد بالسواحل هنا المدن البحرية مثل تنيس ودمياط والبرلس ورشيد وثغور بنطابلس (المدائن الخمس) وهى المعروفة اليوم بإقليم برقة (٢) .

وفى خلافتى عمر وعثمان ، وبعد أن أصبح معاوية بن أبى سفيان عاملاً على الشام كله ، نجد سياسة المسلمين نحو البحر الأبيض تخطو خطوة إلى الأمام . نعم إن عمر رفض أن يسمح لمعاوية بالغزو بجرأاً (٣) ، ولكنه عهد إليه فى تحصين السواحل وجعلها على الأهبة لرد أى عادية على عجل ، فوجد المسلمين يضعون نظاماً دقيقاً لحراسة السواحل ، فنقلوا إليها أقواماً من القادرين على الحرب ، وأقاموهم على السواحل وفى كبار مدنها فى معسكرات منظمة معدة ، وقسموا هذه القوات إلى عرافات ، وأقاموا «المنابر» على السواحل ، واقتبسوا من البيزنطيين فكرة إعطاء الإشارات بإيقاد النيران ، فإذا تراءت الإشارات أسرع كل جندي إلى عرافته وسار الجميع إلى موضع الخطر . ونجد هذا النظام فى أكمل صورة فى مصر ، حيث كانت إشارات «المواقيد» تتوالى من الساحل من موقد لموقد حتى تبلغ الفسطاط فيخف المدد على عجل ، وقد بلغ عدد حاميات السواحل فى الشام ست عشرة وفى مصر عشرة (٤) .

(١) البلاذرى : فتوح ، ص ١٣٤ و Hitti, op. cit. p. 196 وقد عنيت بمراجعة ترجمة الأستاذ حتى لما فيها من

الفوائد والإيضاحات .

(٢) ابن عبدالحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس (ط. تورى) ص ١٣٠ و ١٧٥ و ١٩٠ . والكندى : القضاة والولاة (ط. روفن حبست) ص ٢١ - ٢٢ .

(٣) البلاذرى : فتوح ، ص ١٧٥ . المقريزى : خطط (ط. بولاق) ص ٢٢٦ - ٢٧١ .

(٤) ابن عبدالحكم : فتوح ، ص ١٧٥ .

فإذا تم تحصين السواحل واطمأن المسلمون إلى أنهم قادرون على إحباط كل محاولة يقوم بها الروم في البحر ويعين المسلمين على ما يريدون غزوه من الجزر وغيرها من شواطئ الروم . وكان الهدف الأول من نشأة الأسطول الإسلامي سلبياً ، أى نقل الغلال من مصر إلى الحجاز . وقد اقترن هذا بحفر القناة التي تسمى في النصوص « بخليج أمير المؤمنين » ، وهي فتاة تخرج من النيل شمالى القسطنطينية وتصل إلى خليج السويس عند القلزم^(١) ، وعقب ذلك اهتم العرب بإنشاء أسطول نهري يوصل القمح إلى القلزم ومنها إلى الحجاز ، وأنشئت لذلك دار صناعة عند جزيرة الروضة بمصر ، ولهذا سميت « بجزيرة الصناعة » . وقد أظهر المصريون براعة فائقة في بناء السفن ، فتكون على أيديهم أسطول نهري ، بل تمكن المصريون من بناء سفن قوية تستطيع الاشتراك في المعارك البحرية .

ى — موقعة ذات الصواري البحرية ومكانها من تاريخ البحر الأبيض :

ويبدو أن هذه المهمة التي أبدأها المسلمون في بناء السفن ، هي التي حفزت الإمبراطور البيزنطي قنسطانز إلى الخروج في أسطول بيزنطي ضخمة للقضاء على ما كان لدى المسلمين إذ ذاك من أدوات للحرب في البحر ، وكانت نتيجة ذلك واقعة ذات الصواري ٣٤ - ٦٥٥ التي تعتبر حادثاً فاصلاً في تاريخ الملاحة في البحر الأبيض ؛ ذلك لأن قنسطانز كان يرمى إلى تحطيم قوى المسلمين البحرية في مهدها ، ولو وفق في ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض أو حوضه الشرقي على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين^(٢) .

ولا شك أن السفن التي اعتد بها معاوية في الشام - والتي أخافت الإمبراطور البيزنطي وجعلته يتوقع خروج حملة بحرية إسلامية ضخمة لمهاجمة

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١٧٥ .

(٢) إبراهيم أحمد العدوي : الأمويون والبيزنطيون ، ص ٩٢ وما بعدها .

القسطنطينية بحراً - كانت من بناء أهل الشام ، أى أن نواة الأسطول الإسلامى كانت شامية ، ولكن القوة الحاسمة أتت من مصر ؛ فبينما سار معاوية بسفن الشام من قيصرية الشام ، خرجت عمارة بحرية مصرية من مصر على رأسها عبد الله بن سعد بن أبى سرح . وقد ألقى الأسطول الإسلامى مراسيه عند فونيكة^(١) على ساحل آسيا الصغرى ، وانتظر مقدم الأسطول البيزنطى .

وقد ذكر الطبرى فى كلامه عن هذه الواقعة عبارة تدل على تردد المسلمين فى ملاقات البيزنطيين فى معركة بحرية ، وعلى غرور هؤلاء وثقتهم من أنفسهم على ظهر الماء . قال رواية عن أحد من اشتركوا فى المعركة : « فالتقينا فى البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط ، وكانت الريح علينا ، فأرسلنا ساعة وأرسلوا قريباً منا ، وسكنت الريح عنا ، فقلنا : « الأمن بيننا وبينكم » ، قالوا : « ذلك لكم ولنا منكم » . ثم قلنا : « إن أحببتهم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم ، وإن شئتم فالبحر » . قال : فتنخروا نخرة واحدة وقالوا : « الماء ! »^(٢) . ثم يلى ذلك وصف اللقاء كما سبق بيانه^(٣) .

ويفهم من وصف المعركة أن كثيراً من قبط مصر اشتركوا فى هذه المعركة وهم على دينهم ، فقد اختلف عبد الله بن سعد مع محمد بن أبى

(١) جاء فى كتاب « مصر فى فجر الإسلام » للدكتورة سيدة الكاشف (القاهرة ١٩٤٧) تعليق على موقع فونيكة Phoenicis هذا نصه :

« انظر Justus Perthes: Atlas Antiquis. Tab. 18 D 3. ولكن معظم المستشرقين يرون أن هذه الواقعة البحرية حدثت جنوب آسيا الصغرى بجوار ثغر Phoenix راجع :

M. Canard: Expéditions des Arabes Contre Constantinople dans l'histoire et dans la légende (Journal Asiatique, Janvier-Mars 1926)

وانظر ما كتبه الدكتور زكى محمد حسن فى هذا الصدد فى عدد مايو سنة ١٩٤٤ من مجلة المقتطف ص ٤٨٢ - ٤٨٣ .

انظر الكتاب المشار إليه ، ص ٩٤ هامش ١ .

(٢) الطبرى : تاريخ ، ج ٥ ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٣) انظر عن هذا الوصف : خطط ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

حذيفة ومحمد بن أنى بكر — وكانا فى المعركة — فقال عبدالله بن سعد :
« لا تركبا معنا ، فركبا فى مركب ما فيه من المسلمين أحد » ، ووردت هذه
العبارة فى موضع آخر هكذا : « فركب فى مركب وحده ما معه إلا
القبط »^(١) . وقد كانت هذه المعركة حامية الوطيس حاسمة النتيجة ، إذ لم
يعد البيزنطيون يجرعون بعدها على منازل المسلمين فى مواقع بحرية ، واكتفوا
بمهاجمة سواحل المسلمين ، مما حفز هؤلاء على مضاعفة المهمة فى بناء السفن
وإنشاء دور صناعتها ، « فيذكر البلاذرى أنه لما كانت سنة ٤٩ هاجم الروم
السواحل الإسلامية ، وكانت دور الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بن أنى
سفيان بإنشاء دار للصناعة فى عكا »^(٢) .

ولكن مصر ظلت مركز صناعة السفن الإسلامية ، وظل قبطها مشهوداً
لهم بالتفوق فى مسائل إنشاء الثغور البحرية والحرب البحرية ، حتى كان
يستعان بهم فى كل ناحية من نواحي المملكة الإسلامية ، وقد أظهرت أوراق
البردى التى كشفت فى كوم إشقوا ، والتى ترجع إلى عصر الوليد بن
عبد الملك ، أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضة
وفى القلزم والإسكندرية ؛ فبعض تلك الأوراق يكشف لنا أن الوالى قره بن
شريك كان كثيراً ما يطلب من صاحب كورة إشقوة أن يرسل إليه عمالاً
وصناعاً وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى إعداد الأسطول
المصرى الحربى ، كما تشهد تلك الأوراق بأن الوالى كان ينفق مقدماً على
أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى ، كما كان
يفرض على الكور قادراً من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن
وتنظيفها ، وكذلك يفرض عليها تموين الملاحين الذين يشتغلون فى إعداد
الأسطول المصرى ، بل كان الى مصر يرسل بعض الملاحين للعمل فى

(١) الطبرى نفس المصدر ج ٥ ، ص ٧٠ — ٧١ .

(٢) سيدة الكاشف : نفس المرجع ، ص ٩٠ .

أسطول المغرب أو أسطول المشرق والمساهمة في المشروعات البحرية العامة للدولة الإسلامية^(١) .

وقد استمر ذلك طوال العصر العباسي أيضاً وطوال عصرى الفاطميين والأيوبيين ، ولم تنصرف الدول الإسلامية المصرية عن الاهتمام بشئون البحر إلا فى عصر المماليك^(٢) ، وكان هذا من سوء حظ العالم الإسلامى ؛ لأن هذه الفترة كانت فترة النهوض البحرى الأوروبى وقيام الجمهوريات الإيطالية التى انتزعت السيادة على مياه البحر الأبيض من أيدي المسلمين . قال ابن خلدون : « وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومه من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج^(٣) .

هذا عن نصيب مصر والشام فى الجهد البحرى للمجموعة الإسلامية وهو جهد لم تنهيا له الظروف ليبلغ مداه ؛ لأن الدولة كلها اتجهت وجهة أخرى وسقط البحر الأبيض من حسابها ، وخرجت الولايتان البحریتان الكبيرتان مصر والشام من اهتمامها الحقيقى ، بل وقفت من الشام موقف العداء ، مما أضاع على الدولة الإسلامية فرص الاستفادة منه كمركز لسيادة البحر الأبيض ، ومن أهله كأداة لاستكمال فتح شواطئ هذا البحر وجزره وسيادة أحواضه ، وقد كان لهذا أخطر الآثار فى مجرى التاريخ الإسلامى بعد

(١) سيدة الكاشف : نفس المصدر ، ص ٩١-٩٢ والمراجع المعطاة فى الهوامش .

(٢) انظر : المقرئى : خطط ، ج ١ ، ص ١١٠-١١١ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٦٢ . انظر أيضاً : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٩٨-٩٩ .

ذلك ؛ لأن البحر الأبيض على مدى التاريخ مركز القوة العالمية ومحور سياستها ، من سادته ملك زمام القوة في زمانه .

وكانت أولى نتائج هذا التحول الكبير في اتجاه الدولة الإسلامية ، أن تنفس البيزنطيون الصعداء وعادوا يحاولون استعادة مركزهم في الحوض الشرقى للبحر الأبيض ، ولم تلبث سفنهم أن ملكت زمامه وهددت شواطئ المسلمين تهديداً خطيراً .

وقد أورد الأستاذ أدولف جروهمان نص وثيقة بردية يرجع تاريخها إلى سنة ٢٤١هـ — ٨٥٥م تعطينا فكرة عن تهديد البيزنطيين لسواحل مصر حتى ذلك التاريخ ، وشدة اهتمام الولاة بدفعهم عن السواحل ومقدار ما كان المصريون يعانونه من المتاعب للقيام بالخدمة في الأسطول وحماية شواطئ الدولة الإسلامية ، وهذا نص الوثيقة :

«يا با حفص لو رأيت (ما) الناس فيه عندنا اليوم من التخليط والسخرة : يوخذ (النو) اتية وغير النواتية وكلمن قدروا عليه أخذوه يدخلوا كل يوم جماعة من كل موضع أسأل (الله) الفرج من عند رحمته والأمير أيده الله قد خرج إلى المحلة ودمياط وهو أول يوم من مسرى وأخرج معه جماعة من الجند وذلك أنه ورد عليه كتاب من أمير المؤمنين أعزه الله يشدد عليه أن يريح عندى رسم كتاب لا أقدر أن أكتب به إليك وإذا وردت الخريطة لعله الأمير أبقاه (الله) خرج إلخ»^(١) .

وهي وثيقة ذات أهمية كبرى ؛ لأنها تدل على مقدار تعرض شواطئ المسلمين لغزوات البيزنطيين ومدى خوف المسلمين منهم وعجزهم عن ملاقاتهم ، على هذا النحو الرائع الذى رأيناه خلال العصر الأموى والذى تصوره لنا وقعة ذات الصوارى بصورة أوضح من أن تحتاج إلى بيان .

Adolf Grohmann: From the World of Arabic Papyri. Cairo, 1925. p. 122. (١)

وقد توقف تراجع المسلمين في ذلك الحوض الشرقى حيناً من الزمن عندما استولى نفر من مسلمى الأندلس على كريت كما سنفصله في موضعه ، ولكن الدولة العباسية لم تهتم بأمر كريت ومن فيها من المسلمين ، فلم تلبث أن ضاعت من أيدي المسلمين وعاد البيزنطيون يهددون سواحل الإسلام تهديداً خطراً متصلاً واستعادوا بعض ما فقدوه . وقد بلغ هذا التقدم البيزنطى ذروته عندما استولوا على أنطاكية وطرابلس وتعرضت سواحل المسلمين في الشام ومصر لخطر شديد . نعم إن دول الطولونيين والإخشيديين والفاطميين كانت لها عناية بالشام وبعض المرافق ، ولكن هدفها من تلك العناية كان برياً لا بحرياً ، كانت تريد أرض الشام لا سواحل الشام ، بل مالت الدولة الفاطمية إلى مهادنة البيزنطيين ومصالحتهم والاعتراف الضمنى بسيادتهم على الحوض الشرقى للبحر الأبيض .

وقد ظهر هذا بوضوح ابتداء من القرن العاشر الميلادى ، وهو قرن النهوض البحرى لإيطاليا وغربى أوروبا . وعندما بدأت سفن البنادقة تجوس خلال أمواه الحوض الشرقى للبحر الأبيض وجدت المجال أمامها متسعاً فسيحاً : المسلمون منصرفون عن البحر والبيزنطيون في ضعف ، فاستغلوا الوضع أحسن استغلال لصالحهم ، انتزعوا سيادة الحوض الشرقى من البيزنطيين وأخذوا من أيديهم جزءاً كبيراً من تجارة الشام وهبطت العناية بالبحرية في مصر إلى درجة لم نعد معها نسمع لها ذكراً في تاريخ هذا البحر ، اللهم إلا فيما يتصل بالنشاط التجارى المحدود بين موانئ مصر والشام وبعض نواحي المغرب .

ولو أن الدولة العباسية اهتمت بشئون الملاحة في البحار الآسيوية ، لقلنا إنها أفادت من تجارب الأمويين البحرية نحو قرن من الزمان ، ولكنهم لم يوجهوا أى عناية لشئون البحار . فبينما أفاد الأمويون من أهل الشام ومصر في تكوين قوة بحرية تؤمن سيادة الإسلام على جزء كبير من البحر الأبيض ، نجد العباسيين لا يلقون إلى ذلك بالاً ؛ وبينما اهتم الأمويون بالاستيلاء على ما

أمكنهم من شواطئ البحر الأبيض ، نجد العباسيين لا يفيدون من الملكات البحرية لشعوب الخليج الفارسي ولا يحفلون بإنشاء أسطول .

وقد ظلت البصرة — أكبر موانئهم — مينا خطراً لا تأمن السفن الدخول فيه ، ولم تحاول الدولة إقامة منارة أو ناظر يعينان السفن على الدخول إليها أو الخروج منها ، وظل عماد الملاحين على مهارة أهل عبدان ، وهي فرضة البصرة على الخليج الفارسي ، وقد ظلت السفن تتحطم عند « الخشبات » في مدخل عبدان دون أن تحاول الدولة إنشاء مرفأ صالح للسفن التي كانت تحمل خيرات آسيا إلى العراق . وظلت سفن المسلمين في البحر الأبيض أضخم وأعظم من سفنهم في المحيط الهندي ، واحتفظ أهل الشام بتفوقهم في أمور البحار ، حتى فاقت أساطيلهم أساطيل الفاطميين وحالت بين البيزنطيين وبين استعادة مركزهم في الحوض الشرقي للبحر الأبيض .

وبخروج الخلافة الشرقية من ميدان البحر الأبيض ، انتقل واجب الدفاع عن مركز المسلمين فيه إلى الدول المغربية والأندلسية ، وقام بنو الأغلب فالفاطميون فبنو زيري والأمويون الأندلسيون بحماية الشواطئ الإسلامية في حوض البحر الأوسط والغربي ، وهم الذين حولوا هذين الحوضين إلى بحيرتين إسلاميتين ، بل احتلوا كريت وعدلوا جبهة الإسلام في الحوض الشرقي ، واحتلوا جنوبي إيطاليا واشتبكوا مع الجنوبيين والبيزيين في صراع بحري عنيف ، امتد حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي كما سنرى . وسنعرض الآن لما قام به كل من المغرب والأندلس في هذا الميدان على وجه الإجمال .

ك — المغرب الإسلامي والبحر الأبيض :

رأينا كيف كان أهل المغرب يساهمون بنصيب كبير في النشاط التجاري في البحر الأبيض قبل الإسلام ، وكيف كانت موانئ الشمال الإفريقي مثل قرطاجنة وبونة وسلداى Salade وسبته Septem وطنجة Tingis محطات هامة

في تجارة هذا البحر ، ترسو بها السفن بالمتاجر وتقلع عنها إلى موانئ غالة وإيطاليا وإسبانيا أو تلم بها أثناء رحلاتها لثمتار فيها ، وهذه الحركة التجارية البحرية النشيطة إنما هي مظهر لما امتاز به أهل سواحل المغرب من ملكات بحرية تجارية تظهر وتتجلى كلما أتيحت الفرص ، وهي مرتبطة أشد الارتباط بالحالة العامة داخل بلاد المغرب ، فإذا ساد السلام وجدنا أهل المغرب في البحر ، وإذا اجتاحت البلاد موجات الفوضى أو الحرب القبلية أو الغزو الأجنبي سكنت الحركة في موانئ المغرب وانكمش المغاربة عن البحر حتى يعود الهدوء . وربما كان الأصل في هذا النشاط المغربي هو نزول الفينيقيين شواطئه وإنشأؤهم المحطات التجارية البحرية على طول هذه الشواطئ ؛ وأهم هذه المحطات كانت قرطاجنة التي تحولت بعد ذلك إلى مستعمرة فينيقية فدولة قائمة بذاتها كان لها في تاريخ البحر الأبيض فصل طويل .

ويختلف المغرب عن غيره مما دخل في حوزة الإسلام من بلاد البحر الأبيض بأن النشاط البحري يكون جزءاً لا يتجزأ من حياته وكيانه الاقتصادي والاجتماعي تبعاً لذلك ؛ لأن أخصب أراضي المغرب وأوفقها للسكنى وأوفرها ماء هي مناطق الشريط الساحلي الذي يتصل من تونس إلى المحيط الأطلسي ، ومن ودن هذا الشريط يقوم «سياج الجبال المتهلة» — كما يقول ابن خلدون — وهي جبال درن أو الأطلس ، وتليها نواحي الصحراء تتخللها واحات وسهول ضيقة لا تتسع إلا في أقصى الغرب فيما يعرف الآن بمراكش .

وسكان هذا الشريط الساحلي العامر لا يستغنون عن البحر وتجارته ؛ ولهذا كان أهلهم من أنشط الأمم البحرية أيام الرومان والبيزنطيين ؛ وقد حاول الفاتحون المسلمون لأول دخولهم المغرب أن يقطعوا صلته بالبحر ، فتعمدوا نقل مركز الحياة فيه من «قرطاجنة» إلى بلدة داخلية اختطوها هي «القيروان» ، ثم أكدوا ذلك الاتجاه بتخريب قرطاجنة ؛ ولكن طبيعة البلاد

غلبت عليهم فأنشئوا عقب تخريبها «ميناء تونس» ، وكان الذى خرب الأولى
وبنى الثانية واحداً هو حسان بن النعمان .

وعلى الرغم من قيام « تونس » وتعمير المسلمين لناحية « العدو »
المغربية التى تعرف الآن « بالريف » واهتمامهم بسبته ووطنجة بسبب فتحهم
الأندلس ، فإن حالة الحرب التى استمرت قائمة بين الإسلام والنصرانية
أوقفت النشاط البحرى المغربى ، ودام ذلك طالما كان سلطان المشرق على المغرب
قوياً مباشراً ، فلما تمكن المغرب من التخلص من قبضة المشرق بعض الشيء
بقيام دولة الأغالبة على رأس المائة الميلادية التاسعة ، أخذ المغرب يرتد إلى
البحر الأبيض وعاد أهله إلى نشاطهم السابق فى حوضه الأوسط .

ذلك أن المغرب لم يظل خاضعاً للمشرق إلى ما لانهائية - كمصر مثلاً -
بل دأب أهله من أول الأمر على التخلص من سيادة المشاركة ، ودخلوا معهم
فى صراع طويل . وقد مر الصراع بين المشاركة وأهل المغرب فى أدوار
ثلاثة : الأول من بدء الفتح الإسلامى إلى أوائل عهد الأغالبة ، وفيه كانت
سيادة المغرب مداولة بين المشاركة والمغاربة ، لهؤلاء يوم ولأولئك يوم ، وقد
فشل الكثير من العرب فى السيطرة على المغرب وسيادة أهله خلال هذه
الفترة ، كما نرى فى محاولات آل عبدالرحمن بن حبيب وبني هزارمزد ، وقد
كان القلق الذى ساد أمور المغرب ، واجتهاد قبائله البربرية فى التخلص من
سيادة العرب ، هو الدافع الأساسى الذى جعل هارون الرشيد يترك إفريقيا
لمحمد بن الأغلب لقاء جزية سنوية مقررة . وقد خفت يد المشرق على
إفريقية بذلك ، وإن سادتها إيرة عربية ذات اتجاه شرقى ، ولكن طبيعة البلاد
وأهلها غلبت ، فافتتح باب البحر الأبيض أمام أهل إفريقية من جديد ،
واشتد النشاط على سواحل إفريقية ذلك الاشتداد الذى بلغ ذروته فى فتح
صقلية ومغازاة جنوبى إيطاليا .

وإذ نظرنا إلى الأمور من هذه الناحية ، تبين لنا أن فتح صقلية لم يكن
مصادفة أو مجرد حركة فتح استمراراً لسياسة الفتوح الإسلامية العامة ، بل

محاولة من المغرب لاستعادة مركزه في البحر الأبيض في نطاق إسلامي :
لقد اكتسب أهل المغرب من الإسلام شعوراً بأنفسهم ونزوعاً نحو السيادة ،
وهذا النزوع هو الذى دفعهم إلى محاولة التخلص من سيطرة العرب عليهم
أولاً ثم إلى سيادة حوض البحر الأبيض الأوسط والغربى بعد ذلك . وبينما
كان المغرب قبل الإسلام تابعاً لما يقابله من شواطئ البحر الأبيض الشمالية
نراه ينزع إلى سيادتها بعد الإسلام . وقد تم له ذلك على خطوتين : الأولى
تمت في عصر الأغالة بفتح صقلية والشواطئ الجنوبية لإيطاليا ، مما جعل
الحوض الأوسط للبحر الأبيض والبحر التيرانى أيضاً تحت رحمة المغاربة
المسلمين - وقد كانت العلاقات بين المغرب وغربى أوروبا إذ ذاك علاقات
حرب وعداوة مستمرتين ، واستمر ذلك أيضاً طوال الفترة الفاطمية من
تاريخ إفريقية . والثانية تبدأ عندما استقل المغرب بأمر نفسه وتخلص من
سيادة العرب والمشرق نهائياً في عهد بنى زيرى وما تلاه ، وهنا لاتصبح
الحرب هى العلاقة الوحيدة بين أهل المغرب وأوروبا النصرانية ، بل تدخلها
علاقات التجارة وتبادل المنافع كذلك ، ويرتبط أهل المغرب مع أهل أوروبا
النصرانية بالمعاهدات وتجربى بينهم السفارات ، وتصبح سيادة الحوضين
الأوسط والغربى للبحر الأبيض المتوسط مداولة بين المسلمين المغاربة وأم
النصرانية . ولكن المتتبع لتطور الموقف فى هذين الحوضين يجد أن أمر
المسلمين فيهما كان فى ضعف مع الزمن ، وانتهى الأمر بانتقال السيادة
عليهما إلى أيدي أمم غربى أوروبا وخاصة بعد ضياع الأندلس . والحادث
الحاسم الذى أضعف قوى المغرب البحرية هى الغزوة الهلالية التى شلت
نشاط المغرب كله وأشاعت فى أنحاءه الفوضى والخراب ، فلم ينهض من
جديد إلا على أيدي المرابطين والموحدين .

وقد تتبع « ميكيلي أمارى » والبارون « ماس لاترى » تطور الموقف فى
وسط البحر الأبيض وغربه بين الإسلام والنصرانية ، فأظهرها كيف أن سيادة

المسلمين عليهما كانت تامة حتى نهاية القرن الثامن الميلادى ، ثم بدأت شعوب غرب أوروبا تنازعهم هذه السيادة ابتداء من عهد بين الكبير منشئ البيت الكارولنجى ، بل بلغ الأمر أن نزلت قوة نصرانية يقودها الكونت بونيفا تيودى لوكا على سواحل تونس سنة ٢١٣ - ٨٢٨ . وفى نهاية ذلك القرن نجد السفن الأوربية أقوى من سفن المسلمين وأحسن بناء^(١) وقد توقف تقدم النصرارى فترة بسبب نهوض المغرب فى عهد الفاطميين فبنيت المهديّة سنة ٣٠٨ هـ - ٩٢٠ م وأصبحت مركزاً للعمليات الحربية الإسلامية ضد أوروبا الغربية ، ودور هذا الثغر فى تاريخ البحرية الإسلامية وتاريخ البحر الأبيض كله عظيم ، وهو جدير بدراسة على حدة .

ولا تحدثنا مراجعنا العربية عن النشاط البحرى العظيم الذى أبداه أهل المغرب ابتداء من أواخر القرن الثامن الميلادى ؛ لأن معظم هذا النشاط كان نشاطاً غير رسمى ، أى أن أهل سواحل المغرب كانوا يقومون به لحساب أنفسهم ، ولكن حوليات النواحي التى وجه المغاربة إليها نشاطهم تعطينا فكرة واضحة عنه ، وهى تصف هذا النشاط بأنه كان نشاط قرصان لا هدف له غير السلب والنهب ، ولكننا عندما ندرس القليل من النصوص العربية التى بين أيدينا نبين أن الدافع الأكبر لهذا النشاط كان الحرب الدينية ومغازاة بلاد النصرارى ؛ لأن حوض البحر الأبيض أصبح منذ دخول الإسلام دار حرب ، والجهاد الدينى كما نعلم لا يتنافى مع اكتساح المغانم وأسر الناس وتخريب المواقع ، والحكم على هذه الأعمال يتوقف على وجهة النظر : إسلامية أو نصرانية . ومما هو جدير بالذكر أن العرف الإسلامى كان يستنكر الإسراف فى النهب والسلب ، ومصدق ذلك هذا الخبر الذى يسوقه النويرى عن أول غزوة قام بها المسلمون من المغرب على سردانية ، قال : «ولما فتح موسى بلاد الأندلس سير طائفة من عسكره إلى هذه

(١) Michele Amari: Diplomi Arabi.

الجزيرة ، وهى فى بحر الروم كثيرة الفواكه ، فدخلوها فى سنة اثنتين وتسعين (٧١١ - ٧١٢م) ، فعمد النصارى إلى ما يملكونه من آنية الذهب والفضة فألقوا الجميع فى الماء ، وجعلوا أموالهم فى سقف البيعة الكبرى التى لهم تحت السقف الأول ، وغنم المسلمون منها ما لا يحصى ولا يوصف ، وكثر الغلول . واتفق أن رجلاً من المسلمين اغتسل فى الماء ، فعلق فى رجله شئ فأخرجه ، فإذا هو صحيفة من فضة ، فأخرج المسلمون جميع ما فيه . ودخل رجل من المسلمين إلى تلك الكنيسة ، فنظر إلى حمام ، فرماه بسهم فأخطأه ، ووقع فى السقف ، فانكسر لوح ، ونزل شئ من الدنانير ، فأخذوا الجميع ، وزادوا فى الغلول ، فكان بعضهم يذبح الهر ويرمى ما فى جوفه ويملؤه دنانير ، ويخيط عليها ويلقيه فى الطريق ، فإذا خرج أخذه . وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملؤه ذهباً ، فلما ركبوا فى البحر سمعوا قائلاً يقول : اللهم غرقهم ! فغرقوا عن آخرهم»^(١) .

وهذه الرواية تدل على أن نشاط مسلمى المغرب فى البحر بدأ منذ زمن مبكر وتدل كذلك على أن غزوات المسلمين البحرية لم تكن كسباً كلها .

وسنذكر هنا أهم ما قام به أهل المغرب من أعمال حرية فى حوض البحر الأبيض حتى فتح صقلية ، وينبغى أن ننبه إلى أننا نعتد هنا على مراجع أوروبية لاتينية لا يفرق معظمها بين ما كان يقوم به أهل المغرب وما كان يقوم به أهل الأندلس من أعمال فى هذا المضمار . والحقيقة أنه من العسير جداً أن نفصل ما قام به كل من الجانبين عن الآخر ، فقد كان الجانبان على نشاط عظيم فى البحر على طول العصور الإسلامية ، حتى فتح صقلية اشتركت فيه جماعات أندلسية . بيد أننا نستطيع أن نقول إن الجانب الأكبر من النشاط البحرى الإسلامى فى حوض البحر الأبيض الأوسط كان مغربياً ، أما فى الحوض الغربى فكان معظم النشاط فيه أندلسياً .

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٢ (ط. جسيار ريمرو ، مدريد ١٩١٩) ص ٢٢ . وانظر الترجمة الإسبانية لهذا الجزء ، ص ٣٣ .

فعقب فتح المسلمين للمغرب ، وقبل نهاية القرن الهجرى الثانى (الثامن الميلادى) ، نجد مسلمى المغرب يهاجمون شواطىء إيطاليا الجنوبية والغربية ، ثم وجه المسلمون جهودهم نحو صقلية ، وقاموا من إفريقية (تونس) بغارات متوالية عليها ابتداء من سنة ٣٢ — ٦٥٢ م . إذ يذكر ثيوفانىس أن المسلمين هاجموا صقلية فى ذلك التاريخ ، ثم سكن النشاط البحرى حيناً ليتجدد من أوائل القرن الثامن الميلادى ، فوجد المسلمين يهاجمون صقلية فى سنوات ١٠٢ — ٧٢٠ و ١٠٩ — ٧٢٧ و ١١٠ — ٧٢٨ و ١١٢ — ٧٣٠ و ١١٤ — ٧٣٢ و ١٣٥ — ٧٥٢ و ١٣٦ — ٧٥٣ ولكنها كانت كلها سرايا سريعة لا ترمى إلى فتح الجزيرة .

وكان من الممكن أن يستمر الأمر على ذلك المنوال ، لو لم تجر الأحوال فى دولة الأغالبة على نحو جعل زيادة الله بن الأغلب يرى فى فتح صقلية مخلصاً له من متاعب داخلية كثيرة ، فقد كان اضطهد «جند» العرب لكثرة شغبهم وحاول القضاء عليهم ، وكون لنفسه جيشاً من «السودان» قوامه «ألف أسود» ليستغنى بهم عن جند العرب والبربر . ولكن الأمر لم يتحسن لأن الخصومة اشتدت بين السودان والعرب والبربر وتعرضت الدولة كلها للضياع ، ففكر زيادة الله فى ميدان واسع يلقى فيه بهؤلاء وهؤلاء ليشغلهم به عن نفسه . وتطلع ببصره ناحية صقلية ، وكانت الدولة البيزنطية فى شغل بنفسها عن أمور صقلية ، واستبد بالأمر فيها قائد بيزنطى — هو يوفيمىوس Euphemius الذى تسميه المراجع العربية «فيمة» — فحاولت الدولة إخضاعه فاستغاث بزيادة الله ، فعجل بتجهيز حملة لفتح صقلية ووضع على رأسها قاضياً مسناً هو أسد بن الفرات .

وخرجت الحملة الإسلامية سنة ٨١٢ — ٨٢٧ من سوسة ، ونزلت الجزيرة وحاصرت «سرقوسة» ولم تستطع الاستيلاء عليها أول الأمر ؛ لأن أسطولا بيزنطياً خف لعونها ، وكادت الحملة تفشل ، لولا مدد ساقه الله من الأندلس ، كان مكوناً من نفر من مجاهدة البحر فيها أسرعوا بتخليص

المسلمين الذين كانوا قد تحصنوا في جبل مينيو Minio ، فتمكن المسلمون من الاستيلاء على «بلرم» في ٨٣١/٢١٦ بعد حصار عام ، وحاول البيزنطيون المقاومة ، ولكن النابليين انضموا إلى المسلمين ، فسقطت مسينا في أيديهم سنة ٢٢٩ — ٨٤٣ . ثم تجرد المسلمون لحصار آخر المعقل البيزنطية الكبرى وهي سرقوسة ، فسقطت سنة ٢٦٥ — ٨٧٨ بعد حصار طويل ، وكانت قصر يانه Castrojiovanni قد سقطت قبل ذلك سنة ٨٥٩/٢٤٥ ، ولم تسقط طبرمين Tauromenium إلا سنة ٢٩٦ — ٩٠٨ ، أى أن المسلمين أنفقوا ١٣٨ سنة في فتح هذه الجزيرة ولم تخلص لهم بعد ذلك إلا ثلاثاً وسبعين .

ويعتبر فتح صقلية من المعالم الهامة في التاريخ البحرى الإسلامى ، فإن سيطرتهم عليها جعلت مفتاح حوض البحر الأوسط الأبيض والغرى في أيديهم ، وإذا كان المسلمون لم يحسنوا الاستفادة من صقلية كبلد عظيم وقع في أيديهم وكان في إمكانهم تحويله إلى بلد إسلامى خالص ، فلم يلبث أن ضاع من أيديهم ، إلا أنهم أفادوا منه كمفتاح بحرى عظيم القيمة ، وعرفوا كيف يهددون منه إيطاليا كلها ، ويسودون البحر التيرانى كله ، ويفتحون أجزاء كثيرة من إيطاليا . ومن أسف أن دول الأغالبة والفاطمين وبنى زيرى لم تضع سياسة بحرية رسمية تمكنهم من الإفادة من صقلية مركزها ، ولكن مرابطة المسلمين ومجاهدة البحر قاموا بجانب مما قصرت الدل المغربية الرسمية في أدائه ، فأظهروا نشاطاً عظيماً في الغزو في البحر ، وتمكنوا من موالاة الغزوات على جنوبى إيطاليا وغربها ؛ ولو أن الدول الإسلامية المغربية أيديهم في أعمالهم ونظمتهم ، لكان للمسلمين في حوض البحر الأبيض تاريخ آخر .

وقد أشرنا إلى أنه من العسير التمييز بين ما قام به أهل المغرب وأهل الأندلس من أعمال في البحر في ذلك الحين ؛ لأن مصادرنا هنا لاتينية

أوروبية ، وهى لا تميز بين المسلمين بعضهم وبعض ، بل تضعهم كلهم فى طائفة واحدة ، فتسميهم تارة «المغاربة» Mauri أو «قرصان» أو ساراسينى Sarraceni ، ولكننا نستطيع أن نقول إن أهل المغرب هم أصحاب كل ما ينسب للمسلمين من أعمال فى إيطاليا ، وأهل الأندلس هم أصحاب ما سوى ذلك .

وقبل أن نستطرد إلى ذكر أعمال مسلمى المغرب فى حوض البحر الأبيض يحسن أن نلقى نظرة على السياسة البحرية لكل من دول المغرب التى تولت الأمر فيه خلال الفترة التى ندرسها ، وهى دول الأغالبة والفاطميين وبنى زيرى بفرعيها : أى بنو زيرى أصحاب ما يعرف الآن بتونس ، وبنو حماد أصحاب القلعة المنسوبة إليهم والتى سادوا منها المغرب الأوسط .

فأما بنو الأغلب فكانت الأمور مضطربة فى أيديهم إلى درجة لم تمكنهم من رسم سياسة بحرية ، وإنما كان جل اهتمامهم محاربة الخارجين عليهم من البربر والعرب ، ولو أن الأمور استقرت فى أيديهم فى المغرب لكان لهم فى البحر دور كبير ، فقد كان للكثير من أمرائهم نزوع إلى الكفاح البحرى واهتمام بأمور السواحل وانصراف إلى الجهاد الدينى . ولكنهم كانوا بيتاً قليل الملكات ورث بلداً يضطرب كل ما فيه ، بيد أنهم تمكنوا على أى حال من إقرار السلام فى إفريقية — وهى ما يعرف الآن بـ «تونس» — لفترات طويلة نوعاً ما ، وخلال هذه السنوات انتعش أهل إفريقية وفتحت نفوسهم للجهاد ، فكان هذا النشاط البحرى الذى ذكرناه ، وهو جهاد معظمه غير رسمى ، بل كان الذين قاموا به من خصوم الدولة ، فعلى طول الشواطئ التونسية قامت جماعات «المرابطين» ، وهم جماعات من الأتقياء كانوا لا يرضون عن الأغالبة ، فانصرفوا عنهم واعتزلوا على شاطئ البحر فى مواضع مثل «المنستير» و«سوسة» و«تونس» ، وهناك ابتنوا حصوناً كانوا يسمونها «قصوراً» يقيمون فيها رهباناً مجاهدين ، يحرسون المسلمين ويغزون

النصارى . ويفهم من النصوص أن أعدادهم كانت كثيرة وأن جهدهم في الحرب كان عظيماً . والغالب أن هؤلاء هم الذين قاموا بمعظم النشاط البحرى المغربى مستقلين عن الدولة الأغلبية .

ثم كانت الأحداث التى ذكرناها والتى جرت إلى فتح صقلية . والمتأمل لأحداث هذا الفتح يتبين أن معظم أعمال المسلمين فيه كانت جهاداً حراً لم تتدخل الدولة فيه إلا بقدر قليل . ولقد ألقى زيادة الله فى ميدان صقلية بأعداد كبيرة من اليمنيين والخراسانيين والبربر ، وانضمت إليهم هناك جماعات من الأندلسيين ، وكانت هذه الجماعات متنافرة متباغضة ، فوقع النزاع بين بعضها والبعض لأول سنوات الفتح ، فتلكأ وتعطل . وكلمة تقدم الفتح زاد الخلاف بين هذه الطوائف ، وخاصة بين المغاربة جملة والأندلسيين جملة . وقد بلغ الخلاف بينها مبلغاً خطراً على أوائل القرن العاشر الميلادى ، مما اضطر إبراهيم بن الأغلب إلى الذهاب إلى الجزيرة بنفسه لتهدئة الأحوال . وقد كان لهذا العمل أثر طيب إذ اجتمعت قلوب مسلمى صقلية ، وتمكنوا من الاستيلاء على آخر معقل بيزنطى فى الجزيرة وهو طبرمين سنة ٩٠٨ .

غير أن النزاع لم يلبث أن تجدد ، وتقسمت البلاد بين الطوائف تقسماً محزناً مما عجل بأيام الإسلام فى صقلية . وقد زار الجزيرة بعد ذلك بسنوات الجغرافى ابن حوقل النصيبى ووصف ما بين أهلها من النزاع والنفور والتباغض وصفاً يدعو إلى العجب ، ويدل على أن الخلاف بين المسلمين لم يصل فى بلد من البلاد إلى مثل ما وصل إليه الأمر فى صقلية ، حتى إن الابن كان ينافر أباه ويرفض الصلاة معه فى مسجد واحد ، فكان لكل قادر منهم « مسجد جامع وإمام » .

ولكن النشاط البحرى لمسلمى صقلية كان مستمراً رغم ذلك ، ولكنه كان نشاطاً موزعاً مفرقاً : كل جماعة فى موضع على الساحل تعمل لحسابها

مستقلة عن الأخريات ، فلا غرابة والحالة هذه أن نجد أعمالهم مجرد غارات سريعة قليلة الأثر يغنم المغيرون خلالها ما يصل إلى أيديهم في الموضع الذى ينزلون فيه من شواطئ إيطاليا ثم يعودون .

وأما الفاطميون فلهم فى تاريخ البحر الأبيض فصل طويل ، سواء خلال الفترة المغربية أو المصرية من تاريخهم ، غير أن نشاطهم خلال الفترة الأولى كان موزعاً بين محاربة النصارى ومحاربة الأمويين الأندلسيين ، تارة يشتبكون مع هؤلاء وتارة مع أولئك بغير تفريق ، ويتعقبون سفن الأندلسيين وسفن النصارى بنفس المهمة ، ولكنهم رغم ذلك كانوا أعظم أثراً فى البحر من سبقهم ومن تلاهم من بنى زيرى . فقد عرفوا كيف يكونون أسطولا قوياً كما نجحوا فى تكوين جيش كبير ، وقد بلغ نشاطهم البحرى ذروته على أيام عبيد الله المهدي ، ففى عهده استقرت أقدام المسلمين فى سردانىة ، وهو الذى تنبه إلى أن سردانىة أصلح القواعد لمهاجمة الغرب النصرانى ، فأنشأ فيها مراكز قوية ونقل إليها قوات كبيرة من المسلمين . ثم جمع قوات المسلمين فيها وقام منها بأخطر هجوم إسلامى عرفته جنوا سنة ٣٣٢-٣٣٣ هـ . وربما كان سر اهتمامه بسردانىة هو خوفه من الأندلسيين ، ورغبته فى حماية شواطئه وشواطئ صقلية منهم .

وفى عهد عبيد الله المهدي أنشئت «المهدية» فى تونس ، وهى التى ستصبح أقوى مركز بحرى إسلامى للعمليات البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد قام هذا البلد بعبء الكفاح ضد النصرانية بقية العصر الفاطمى وعصر بنى زيرى ، ومنها خرجت أقوى الحملات الإسلامية على جنوبى إيطاليا .

وعندما انتقل الفاطميون إلى مصر انتقل إليها نشاطهم البحرى أيضاً ، بيد أن نشاطهم البحرى خلال الفترة المصرية من تاريخهم لم يكن يهدف إلى مغازاة البيزنطيين بل إلى حماية شواطئهم الطويلة منهم ، فقد سيطر

الفاطميون على شواطئ الإسلام من أنطاكية إلى الإسكندرية ، وكان عليهم أن يقوموا بحماية ذلك كله ، فشغلوا به عن المغازاة فيما وراء البحر من بلاد النصرانية .

وقد تمكن الفاطميون من سيادة الحوض الشرقى للبحر الأبيض سيادة تامة أمنت أمواهه ، فجرت السفن بالتاجر ما بين شواطئ الشام ومصر ونشطت الموانى والثغور نشاطاً عظيماً لم تبلغه في فترة ماضية ، فاتسعت أنطاكية وطرابلس وعسقلان وتيس اتساعاً كبيراً وعظمت تجارتها ، حتى لقد طلب الإمبراطور البيزنطى من الخليفة الفاطمى أن يتنازل له عن تيس في مقابل مال عريض ، وتيس كانت تقوم على جزيرة في الماء ، فحسب البيزنطيون أن الخليفة الفاطمى لا يعدها من أرض مصر ، ويتنازل عنها ، وكانت أعظم مركز للنسيج في العالم الإسلامى إذ ذاك ، وكانت تقدم للبلاط البيزنطى أحسن أنواع الحرير الأرجوانى ، وكانت منظمة نظاماً صناعياً تجارياً عظيماً . وتقدمت — نتيجة لهذا النشاط البحرى — صناعة السفن الإسلامية ، حتى كانت سفنهم في شرق البحر الأبيض أحسن وأضخم من سفنهم في بحر الهند وآسيا .

وكان الفاطميون بطبعهم أصحاب عناية بالاقتصاد وشئونهم ، وكانوا ذوى حرص على طرف الصناعة ، حتى لقد ضمت خزائهم منها ما أحصى المقرئى بعضه في صفحات كثيرة من خطه ، وربما كان هذا هو السر في ارتفاع أمر التجارة والتجار في عصرهم . وكان الفاطميون في سياستهم العامة أميل إلى مصالحة البيزنطيين في موانى الإسلام وبعض مدنه ، ونجد تجار المسلمين يدخلون أراضى الدولة البيزنطية ويتاجرون معها في حرية تامة . أى أن الفترة الفاطمية تعتبر فترة الأوج في النشاط البحرى التجارى الإسلامى في الحوض الشرقى للبحر الأبيض .

ومن الطبيعى والحالة هذه أن نجد النشاط البحرى الحرى الفاطمى قليلاً نسبياً ، يكاد يقتصر على الدفاع عن مياه دولتهم ولا يتعداه إلى الغزو

والفتح ، وليس أدل على ذلك من قلة اهتمامهم بقاعدة كبرى مثل قبرص .
فهذه الجزيرة الكبيرة التي تعتبر مفتاح الحوض الشرقى للبحر الأبيض كانت
على أيامهم فى حالة هى وسط بين الخضوع للمسلمين والبيزنطيين : لقد بدأ
هؤلاء الأخيرون غزوها سنة ٢٨ — ٦٤٩ أيام معاوية بن أبى سفيان وكانت
لهم فيها وقائع وحروب اشترك فيها نفر من الصحابة ونسائهم ، وأهمهن أم
حرام التى استشهدت هناك ولا زال قبرها إلى الآن على مقربة من لارانقا
Laranca أكبر المزارات الإسلامية فى الجزيرة .

وقد ظلت الجزيرة خلال العصر الأموى قسمة بين المسلمين والروم ،
فكانوا يتقاسمون خراجها بناء على اتفاق تم بين عبد الملك بن مروان
والإمبراطور جستنيان الثانى سنة ٦٩ — ٦٨٨ . ويقال إن هارون الرشيد
أراد أن يحسم موقف الإسلام فى هذه الجزيرة ، ولكنه لم يفعل شيئاً . ومن
الثابت على أى حال أن معظم أهل الجزيرة كانوا نصارى إلى عهده .

وعندما نهضت الدولة البيزنطية على أيام المقدونيين تجرد هؤلاء
لاستخلاص الجزيرة ، فغزوها فيما بين سنتى ٢٦١ — ٨٧٤
و ٢٦٨ — ٨٧٦ ثم استعادها للدولة البيزنطية نقفور فوكاس فيما بين سنتى
٩٦٣/٣٥٢ و ٩٦٩/٣٥٩ ، وقد خرجت من أيدي المسلمين من ذلك
الحين .

ولم يحاول الفاطميون استعادتها ، فظلت فى يد البيزنطيين حتى انتزعها
منهم ريتشارد قلب الأسد أثناء الحروب الصليبية ، ووهبها لفرسان الداوية ،
ثم انتقلت إلى يد جى دى لوزينان ، وظلت خاضعة للفرنجة ٤٠٠ سنة حتى
فتحها بيبرس البندقدارى سنة ٦٧٩ — ١٢٧٠ .

وقد يكون الفاطميون أعظم دول الإسلام اهتماماً بشئون البحر بعد
الأمويين ، وقد يكون ذلك أثراً من الآثار المغربية فى تكوين دولتهم ، فإن
البحر — كما قلنا — يكون جزءاً لا يتجزأ من كيان المغرب الاقتصادى

والاجتماعى والسياسى أيضاً ، وذلك لأسباب جغرافية ألعبنا إليها فيما مر .
وليس إلى الشك سبيل فى أن البحرية الفاطمية وصلت إلى درجة كبيرة من
القوة والانتظام قبل انتقال الفاطميين إلى مصر ، يدل على ذلك هذا النشاط
البحرى العظيم الذى تحدثنا عنه على أيام عبيد الله المهدي . فلما انتقل
الفاطميون إلى مصر انتقل معهم هذا الاهتمام بالبحر وشئونه ، وزاد أمره
عندما استقرت الدولة فى مصر ، ووجدت فى البلاد تقاليد بحرية قائمة ودور
صناعة صالحة . وإن كان الإهمال قد كاد يعفى عليها . وللقشندى فقرة
ذات قيمة عظيمة فى هذا الباب ، لا بأس بأن نوردها بنصها لأنها تغنيانا عن
كثير من الكلام . قال تحت عنوان « فى اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور ،
واعتنائهم بأمر الجهاد وسيرهم فى رعاياهم واستمالة قلوب مخالفهم » .

«أما اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور واعتنائهم بأمر الجهاد ، فكان
ذلك من أهم أمورهم ، وأجل ما وقع الاعتناء به عندهم . وكانت
أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالإسكندرية ودمياط من الديار
المصرية ، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام حين كانت
بأيديهم قبل أن يغلبهم عليها الفرنج ، وكانت جريدة قوادهم تزيد على خمسة
آلاف مقاتل مدونة ، وجوامكهم فى كل شهر من عشرين ديناراً إلى خمسة
عشر ديناراً إلى عشرة إلى ثمانية إلى دينارين ، وعلى الأسطول أمير كبير من
أعيان الأمراء وأقواهم جأشاً ! وكان أسطولهم يومئذ يزيد على خمسة
وسبعين شينياً وعشر مسطحات وعشر حمالات ، وعمارة المراكب متواصلة
بالصناعة لا تنقطع . فإذا أراد الخليفة تجهيزها للغزو ، جلس للنفقة بنفسه
حتى يكملها ، ثم يخرج مع الوزير إلى ساحل النيل بالمقسم ، فيجلس فى
منظرة كانت بجامع باب البحر والوزير معه للموادعة (= التوديع) ، ويأتى
القواد بالمراكب التى تحت النظرة ، وهى مزينة بالأسلحة والمنجنقات
واللعب منصوبة فى بعضها ، فتسير بالمجاديف ذهاباً وعوداً كما يفعل حالة
القتال ، ثم يحضر إلى بين يدى الخليفة المقدم والريس فيوصيهما ويدعو لهم

بالسلامة ، وتنحدر المراكب إلى دمياط وتخرج إلى البحر الملح . فيكون لها في بلاد العدو الصيت والسمعة . فإذا غنموا مركباً اصطفى الخليفة لنفسه السبي الذى فيه من رجال أو نساء أو أطفال ، وكذلك السلاح ، وما عدا ذلك يكون للغنائم لا يساهمون فيه . وكان لهم أيضاً أسطول بعيذاب يتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها ، خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب ، فيحميهم الأسطول منهم ، وكان عدة هذا الأسطول خمسة مراكب ، ثم صارت إلى ثلاثة ، وكان والى قوص هو المتولى لأمر هذا الأسطول ، وربما تولاه أمير من الباب ، ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه» .

وقد عقد الدكتور عبدالمنعم ماجد فصلاً طيباً عن البحرية المصرية في العهد الفاطمى فى كتابه عن «نظم الفاطميين» . وسنورد هنا فقرات منه ؛ لأنه يصور لنا البحرية المصرية — والإسلامية عامة — فى أوجها فى شرق البحر الأبيض قبل الحروب الصليبية ، وهو يتمم ما قلناه عن الدور الذى قامت به مصر فى تاريخ البحرية الإسلامية عامة .

أشار ماجد إلى ضعف الأسطول المصرى على أيام الطولونيين والإخشيديين ، ثم ذكر كيف أن مركز الفاطميين فى شرق البحر الأبيض فرض عليهم الاهتمام بالأسطول والبحرية ، وذكر — رواية عن القلقشندى — كيف أن «وحدات الأسطول الفاطمى كانت مرتبة بجميع الشواطىء الساحلية ، مثل الإسكندرية ودمياط وعسقلان وعكا وصور وغيرها من مرافئ سوريا . ولكن هذه السيادة البحرية على سواحل سوريا لم تبق لهم طول عهدهم ، فقد غلبهم عليها الصليبيون فى القرن الأخير من حكمهم» . ثم أشار إلى دور الصناعة فى مصر الفاطمية وقال : «وقد كانت أهم مراكز إنشاء المراكب المسماة «دور الصناعات» فى عصر الفاطمى توجد فى العاصمة ، فكانت المقس التى أنشأها الخليفة المعز فى شمال القاهرة

على ساحل النيل ، تقوم ببناء ستائة قطعة ، كما كانت جزيرة الروضة التي
عرفت في العهد الفاطمي باسم « جزيرة مصر » تقوم أيضاً بإنشاء المراكب
البحرية .

« وقد وجدت أماكن أخرى متعددة في مصر وفي الإمبراطورية لبناء
المراكب ، فيروى المقریزی أن الفاطميين واصلوا إنشاء المراكب بنشاط
بمدينة الإسكندرية ودمياط » .

« وكانت الدولة الفاطمية تبذل جهدها للحصول على الخشب الضروري
لإنشاء المراكب سواء من مصر أو من الخارج . ففي مصر كانت تقيم
الحراس لحماية أشجار لا تخص من السنط ، وفي البهنساوية والأشمونية
والأسيوطية والأخميمية والقوصية ، وهي ذات أعواد قوية تصلح في عمل
المراكب . ولم تتردد مصر أيضاً في الحصول على الخشب اللازم لأسطولها
من البندقية ، مما دعا بيزنطة إلى الاحتجاج عند الدوج (Doge) أو حاكم
البندقية ، الذي اضطر أمام هذا الاحتجاج إلى وقف إرسال الخشب إلى
مصر » .

ثم تكلم عن الأسطول ومراكبه فقال : « فيأتى في طليعة مراكب
الفاطميين في مصر أسطول تجارى يملكه الخليفة ، في غاية النشاط » . فقد
عرف خلفاء الفاطميين الانتفاع بمزايا الموقع الجغرافى لمصر ، في مفترق سیر
المراكب الآتية من آسيا والشرق الأقصى ، فأنشئوا أسطولا تجارياً كبيراً ،
بقصد التجارة العالمية وبخاصة مع الهند . ويروى ناصرى خسرو في رحلته
بعض الفقرات الطريفة عن أسطول الخليفة : فقد كان من بين ألف مركب
راسية في تنيس ، عدا ما هو ملك للتجار ، عدد كبير ملكاً للخليفة . ولا
ريب أن مراكب الخليفة التجارية كانت تبنى في دور صناعة الدولة ، وإن لم
تصلنا أية معلومات دقيقة عن طريقة صنعها أو تجهيزها .

«أما عن الأسطول الحرى ، فلدينا أسماء بعض وحداته ، مثل : «الشوانى» ، جمع «شبنى» أو «شونة» ، وهى من أهم قطع الأسطول الفاطمى وأطولها ، وتجذب بمائة وثلاثة وأربعين مجذافاً ، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع ولل هجوم ، وتحتوى على أهراء لخنز القمح وصهاريج لخنز الماء الحلو . و«الحراريق» جمع «حراقة» وهى من أكبر المراكب أيضاً ، وإن كانت أقل من الشونة حجماً ، وتستعمل على الأخص فى حرق سفن العدو ، ولذلك كانت مزودة بالنفط الذى يرمى بالمنجنقات أو بالسهام أو فى القوارير . و«البطس» جمع «بطسة» وهى من السفن الحربية العظيمة ، التى تشتمل على عدة طبقات وعلى قلع كثيرة تقدر بأكثر من أربعين قلعا ، وهى تستخدم فى حمل الأزواد والذخيرة وعلى الأخص الرجال ، فيروى المقريزى أن إحدى «البطس» كانت تحمل ألفاً وخمسمائة شخص . والمراكب المسماة «أغربة» جمع «غراب» وهى من المراكب الحربية شديدة البأس ، ولعلها سميت بهذا الاسم بسبب شكل مقدمة هيكليها التى كانت على شكل رأس غراب . و«المسطحات» جمع «مسطحة» أو «مسطح» ، وهى نوع من كبار سفن الحرب المسوحة . و«الطرائد» جمع «طريدة» ، وكانت تستخدم فى نقل الخيل . و«الشلنديات» جمع «شلندى» ، وكانت من كبار المراكب المسطحة ، وتستخدم فى نقل البضائع . و«القراقير» جمع «قرقورة» ، وكانت من السفن العظيمة المعدة لنقل المؤن للأسطول . و « الحمالات » جمع « حمالة » ، وكانت تحمل الذخيرة للأسطول .

« وبالإضافة إلى هذه القطع الحربية الرئيسية يشتمل الأسطول على قطع أخرى مثل : « الطرادات » جمع « طراد » أو « طراة » وهى سفن حربية صغيرة على هيئة البرميل ، بدون سطح ، وتستعمل فى مطاردة العدو لسرعتها و« الشبايك » جمع « شبك » أو « شباك » وهى من سفن الأسطول الصغيرة ، ذات ثلاثة قلاع ، وقد تسير بالمجاذيف . و « الفلايك »

جمع « فلوكة » ، وهى مراكب صغيرة تتحرك بالمجاديف . وكانت « القوارب » جمع « قارب » و« الزوارق » جمع « زورق » ضمن قطع الأسطول أيضاً ، وهى مراكب من غير شراع ، وتستعمل - فى العادة - لنقل الأشخاص .

« وكانت الدولة تملك أسطولاً نهرياً يسير فى النيل مثل المراكب التى يقال لها « عشاريات » جمع « عشارى » ، وكانت تسمى فى العصر المملوكى « حراقة » وتستخدم فى جمع غلات الدولة وغيرها . ويقول ابن الطوير بوجود عشرين مركباً من نفس النوع تسمى « دماميس » جمع « ديماس » أو « ديتاس » برسم الخليفة وبعض الموظفين الكبار فى الدولة . وكانت « الشذوات » جمع « شذات » و« السميريات » جمع « سميرية » تستعمل فى نقل المؤن والعساكر فى الأنهار . أما المراكب المسماة « علايات » و« حمائم » و« وسنابك » فكانت معروفة من قبل فى عهد ابن طولون وتسير فى النيل .

« ويشير القلقشندى ، عند كلامه عن الأسطول الفاطمى ، إلى وجود أسطول صغير قليل العدد يتكون من ثلاثة أو خمسة مراكب فى مرفأ عيذاب ، كان يقوم بأعمال الحراسة فى البحر الأحمر وتنظيفه من القرصان .

« ويصف لنا ابن جبير ، الذى زار مصر فى عهد صلاح الدين ، كيفية صنع المراكب التى كانت تمخر البحر الأحمر وتسمى « جلاب » جمع « جلبة » فهى كانت تبنى بطريقة عجيبة جداً ، لا يستعمل فيها مسمار البتة ، وإنما خشبها يخيظ بحبال مصنوعة من قشر الجوز المفتول ، وتتخللها عيدان النخل ، ثم تسقى المراكب بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن سمك القرش - وهو أحسنها لتلين الأعواد ، فقد كانت مياه البحر الأحمر تأكل المسامير وتجعلها غير صالحة ، وكانت هذه المراكب لحقتها تحمل على ظهور الجمال ، وتسير بالمجاديف أو بالشراع .

وقد نقلنا هذه الفقرة الطويلة لأنها تعطينا فكرة واضحة جداً عن هيئة الأسطول الفاطمي المصري وسفنه ، وتصور لنا البحرية المصرية في ذروتها قبل الصليبيات .

وجدير بالملاحظة أن أسلوب الحرب البحرية الذي جرى عليه المسلمون في العصر الفاطمي ، كان هو نفس أسلوبهم الذي تكلمنا عنه عند كلامنا عن موقعة ذات الصواري ، وهو نفس أسلوب الحرب البرية ، وفي ذلك يقول ماجد : «وكانت المراكب تزود بأنواع السلاح البحري المختلفة ، ولكننا نجهل التفاصيل الدقيقة عن الأسلحة البحرية ، وربما كانت تشبه أسلحة الجيش فيروى القلقشندي أن أسلحة رجال الأسطول الرئيسية كانت عبارة عن القسي التي تشد بواسطة اليد أو الرجل ، أما عن أسلحة المراكب الكبرى فإنها كانت تزود على الأخص «بالمجنقات» و«العراصات» لقذف الحجارة أو المواد الملتهبة ، و«بالكلاليب» ، وفائدتها أنها تلقى على مراكب العدو فيوقفونه ثم يشدونه ويرمون عليه الألواح كالجسر ويدخلون إليه ويقاتلون من فيه . وكان الأسطول الفاطمي — مثل أساطيل الدول في ذلك العصر — يستخدم النفط أو النار الإغريقية ، التي تكلمنا عنها فيما سبق ، فكان يستعمل نوعاً من النفط يسير على الماء دون أن ينطفئ ، فكان هذا النفط يحرق مراكب العدو . وعلى العكس ، كانت المراكب الفاطمية تحتمي من نار العدو وقذائفه بتغطية هيكلها بدرع من الخارج يسمى «لبوس» ، عليه غطاء يسمى «لبود» من جلود البقر الطرية أو من البسط ، أما الرجال فيحتمون من الحريق بدهن أجسامهم بالبلسان . وليس من شك في أن القطع البحرية الفاطمية كانت مزودة أيضاً بكل ما هو ضروري للحرب في البر ، فكانت المراكب تحمل الأسلحة التي تستخدم في نقب أسوار الموانئ المعادية ، مثل «الأبراج» و«الدبابات» و«السلالم» وحتى «الحبال» .

«ومن الطريف أن نذكر وجود قفص فيه حمام ، ضمن معدات أسطول صقلية ، فكان هذا الحمام — على ما يظهر — يستعمل في إبقاء الاتصال بين مختلف وحدات الأسطول ، أو بينه وبين القيادة العامة في البر . أضف إلى ذلك أن مركب «رئيس الأسطول» كان يزود بفانوس خاص لتهتدى به المراكب الأخرى فيقلعون بإقلاعه ويرسون برسوه» .

بيد أن ذلك كله ضعف شيئاً فشيئاً مع ضعف الدولة الفاطمية العام ، وخاصة خلال النصف الثاني لعهد المستنصر الطويل ، إذ تخلخلت نظم الدولة كلها وقلت اهتماماتها وعجزت عن موالاة البحر بالاهتمام اللازم . وكانت النتيجة أن طلائع الحروب الصليبية عندما بدأت لم تجد في حوض البحر الأبيض الشرق من قوى المسلمين البحرية ما يقف أمامها ، وكان لهذا أثره البعيد في تاريخ هذه الحروب . وليس إلى الشك سبيل في أن البحرية المصرية لو كانت على هذا الحال من القوة أواخر القرن الحادى عشر الميلادى لكان لتاريخ الحروب الصليبية كله اتجاه آخر .

ونعود بعد ذلك إلى عرض بقية أوجه النشاط البحرى لأهل المغرب الإسلامى ، ولا يتسع المقام لذكر التفاصيل ؛ ولهذا فسنكتفى بذكر أهم الوقائع وتواريخها .

ففى سنة ٨١٢ هاجم المغاربة لمبيدوزا Lampedouza وبوترا وإيشيا على الشواطىء الإيطالية ، وتغلبوا على ما حاوله أهل أمالفى وغايته من ردهم . وفى سنة ٨٣٦ شن أهل المغرب وصقلية حملة كبرى على جنوبى إيطاليا ، واحتلوا برنديزى Brundisium سنة ٨٣٦ وملكوا هذا البلد ثلاثين سنة من ٨٤٠ إلى ٨٧٠ . وفى سنة ٨٣٦ هاجموا نابلى وحاصروها دون جدوى . وفى سنة ٨٣٧ قاموا بغزوة كبيرة اجتاحوا فيها إقليم قلورية Calabtia كله ، وخربوا مدينة كابوا Capua سنة ٨٤٠ ، واحتلوا بنفتو Benevent وحكموها خمس سنوات ٨٤٢—٨٤٧ ، وتخلصت منهم لفترة قصيرة

عادوا إليها بعدها ، واستولوا على ثارنت Tarentum وحكموها أربعين سنة ٨٤٠—٨٨٠ ، واحتلوا كذلك بارى سنة ٨٤١ وظلوا فيها إلى ٨٧١ ، وغزوا روما وخربوا بعض أجزاء من كنيسة القديس بطرس سنة ٨٤٦ ، وفيما بين سنتي ٨٧٦ ، ٨٧٧ قاموا بغارة شديدة على ولاية كمبانيا Campagna ، وفي سنة ٨٨٣ تقدموا شمالى روما ووصلوا إلى مونت كاسيني وخربوها . وفي نفس الوقت نزلت جماعة من مهاجرة البحر الأندلسيين شاطئء إيطاليا الشمالية الغربى واجتاحت نواحي كثيرة من شمالى إيطاليا ووصلت إلى جبال الألب .

وفي سنة ٨٠٩ بدأ الأندلسيون فى غزو قرصقة وسردانية ، وكانت الأولى تابعة للبيزنطيين والثانية للفرنجة .

وفي سنتي ٨٣٤ و ٨٣٥ هاجم أسطول أغلبى خرج من صقلية جنوة وخربها ، وغزا أسطول الأغلبة من المغرب وصقلية قورصقة وسردانية مرة أخرى وثبتت أقدام الأغلبة فيهما إلى سنة ٨٣٠ ، ثم انتقلت إلى طاعة الفاطميين حتى سنة ١٠٠٣ ، ثم صارت إلى الأندلسيين وظلت فى أيديهم إلى سنة ١٠١٦ حيث بدأت قوات جنوا وبيزا المتحدة تهاجمها ، ولم تستخلصها من أيدي المسلمين إلا فى سنة ١٠٥٠ .

وفتح الأغلبة مالطة سنة ٨٢٤ وظلت فى أيدي المسلمين إلى سنة ١٠٩٠ حيث انتزعها منهم النورمان .

وفي سنة ١٣٠—٧٤٨ فتح والى إفريقية عبدالرحمن بن حبيب جزيرة قوصرة المعروفة ببنتلرية Pantelleria ، وثبت قدم الإسلام فيها بعد أن حاول ذلك قبله عبد الملك بن قطن الفهرى والى الأندلس وحبيب بن أبى عبيدة الفهرى . وقد ظلت فى أيدي المسلمين حتى استولى عليها منهم رجار (روجر) النورمانى سنة ٤٨٤—١٠٩١ . وقد كانت قوصرة طول سيطرة المسلمين عليها كالدرع يقى تونس من غزوات النصارى والنورمانيين

خاصة . فلما سقطت صقلية في يد أولئك الأخيرين لم يبق إلا قوصرة تحمي شواطئ تونس ، فلما سقطت هي الأخرى انحدرت الجبهة الإسلامية إلى شواطئ تونس وتعرضت سواحلها لغارات النورمانيين ، وحاول رجار مهاجمة «المهدية» أكبر المراكز البحرية الإفريقية إذ ذاك ، فنزل إلى الساحل وحاصرها سنة ٥١٧-١١٢٣ ولكن جيوش بنى زيرى ثبتت له وهزمته في موقعة «الديماس» . وجدد النورمان محاولتهم سنة ٥٤٢-١١٤٨ واستولوا على «المهدية» ، ذلك الحصن الإسلامى ، فانهارت جبهة المقاومة الإفريقية ، وزاد الطين بلة اضطراب أمر المغرب كله عقب غزوة العرب الهلالية ، فطال أمد احتلال النورمانيين لشاطئ إفريقيا (تونس) ، وقد صدق الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب حين علق على ذلك بقوله : «وكان ذلك آخر عهد السلطان الإسلامى بجزائر البحر»^(١).

هذه صورة مجملة لنشاط أهل المغرب في حوض البحر الأبيض الأوسط والبحر التيرانى ، وهى تعطينا فكرة عن هذا الجهد العظيم الذى قاموا به ، وهو جهد غير منظم ولا متصل لأن الدول الرسمية لم تعن به ، ولم تنتبه إلى ما يعود عليها من الخير من وراء السيطرة على البحر ، حتى صقلية لم يعنوا بها العناية الواجبة فضاعت من أيدي المسلمين وانصرفوا عنها وزالت آثارهم منها كأنهم لم يفتحوها يوماً ، إنما معظم الفضل فى ذلك الجهد يرجع إلى المغامرين وذوى البأس والمتحمسين من أهل شواطئ المغرب ومسلمى صقلية ، وهؤلاء من الممكن أن يكونوا خالصى النية فى الجهاد أو مجرد طامعين فى الغنم والسلب ، ومن هنا انفتح على المسلمين باب الاتهام بأعمال القرصنة ، وسناقش ذلك فيما بعد .

وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن دول المغرب بطبيعتها ضعيفة فقيرة ، لقلة القوى البشرية والموارد اللازمة لإقامة الدولات والصمود فى ميدان ثقل

(١) حسن حسنى عبد الوهاب : قصة جزيرة قوصرة العربية ، المجلة التاريخية المصرية ، ج ٢ ، عدد ٢ ، سنة ١٩٤٩ ، ص ٥٥ وما بعدها .

التكاليف كثير المطالب كسيادة البحر أمام دول أغنى وأقوى وأدرى بأمور البحر ، وإن الإنسان ليتأمل هذا الجهد المتعدد النواحي الذى قام به أهل المغرب على عسر ظروفهم واضطراب أمور السياسة فى بلادهم فلا يسعه إلا التعجب من اقتدارهم عليه رغم ذلك كله . وسوف يتغير مركز المغرب عندما تدب الحياة فى أقصاه — ما يعرف الآن بمراكش — ويتسع مداه حتى يصل إلى أحواز النيجر وتدخل الأجناس البشرية الكثيرة الضاربة هناك رحاب الإسلام وتنتظم ضمن قواه ، هنا يتغير وجه التاريخ المغربى ويأخذ فى طريق القوة ، فيصبح درع الجبهة الغربية الإسلامية كلها ويتولى الدفاع عنها فى البر والبحر بعد انهيار الأندلس وخروجه من الميدان . وهذا كله يتمثل لنا فى قيام دول المغرب الأربع الكبرى : المرابطين والموحدين والحفصيين — وقد قاموا على أكتاف صنهاجة — ثم بنى مرين ، وهم زناتيون ، لكن ذلك يتخطى الحدود الزمنية التى رسمناها لهذه الدراسة : ما قبل الصليبيات .

ونعود إلى ما استطردنا عنه منذ قليل ، لنعرض فى إيجاز لتطور العلاقات بين إفريقية وأم أوروبا النصرانية بعد ما كان فى انهيار الجبهة البحرية للأولى وتراجع مدى سلطانها إلى ما يسمى فى عرفنا الحديث بالمياه الإقليمية المغربية .

وبعد انتقال الفاطميين إلى مصر سنة ٩٧٢م . قامت بشئون إفريقية دولة بنى زيرى الصغيرة ، وفى عهدها فقد المسلمون مراكزهم فى البحر الأبيض شيئاً فشيئاً ، ولم تصبح عملياتهم الحربية فيه عمليات منتظمة تهدف إلى غاية ثابتة ، بل ضربات هنا وهناك يقوم بها أهل إفريقية حيناً وأهل صقلية حيناً آخر وأهل الأندلس حيناً ثالثاً ، وهكذا . ومثال ذلك أن أهل إفريقية غزوا كاجليارى وبيزا سنة ١٠٠٢ ، وبعد ذلك بثلاث سنوات قام مجاهد الدانى صاحب الجزائر الشرقية — وهى جزائر البليار — ونهب بيزا ، وفى نفس العام انتقم البيزيون لأنفسهم فغزوا شواطئ الأندلس ، وفى سنة ١٠١١ قام

الأندلسيون بغارة عنيفة على بيزا . وفي هذه الفترة نجد اسم مجاهد الداني بارزاً في تاريخ وسط البحر الأبيض وغربه ، وكان أولى بنا أن ندع الكلام عنه إلى الفقرة الخاصة بالأندلس ، ولكن سياق الحديث يستدعي ذكر أعمال مجاهد الداني في هذا المقام .

وهنا أيضاً نلاحظ ما لا حظناه أكثر من مرة في دراستنا لأعمال المسلمين في البحر ، وهو أن المصادفة تلعب دوراً هاماً فيها ، وكما فتح بنو الأغلب صقلية مصادفة واضطراباً فكذلك دخل مجاهد الداني ميدان الكفاح البحري . فقد كان الركن الجنوبي الشرق من الأندلس قد صار عند تفرق أمر الأندلس إلى جماعة من صقلية بيت المنصور محمد بن أبي عامر المعروفين بالصقلية العامريين ، ثم تقلص أمرهم أثناء الكفاح الطويل بين الطوائف حتى لم يعد بأيديهم إلا دانية . وضائق أرض الأندلس بهم وخصومهم يحيطون بهم من كل ناحية ، ففكر واحد منهم وهو مجاهد الداني العامري في الاستيلاء على الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار ، فانتقل إليها بقواته سنة ١٠١٥ ومكن لنفسه فيها واتخذها — مع دانية — مركزاً لنشاط بحري كبير جعل اسمه يبعث الرعب في الحوض الغربي للبحر الأبيض كله .

وقد فتح المسلمون هذه الجزائر لأول مرة سنة ٩٠٣ على يد عصام الخولاني ، كما سنرى بعد . وكانت قبل ذلك تابعة لدولة الفرنجة ، وقد فتح عصام ميورقة ومنورقة وبقية يابسة Juiza بيد الفرنجة . وقد ظل عصام يحكمها باسم خلفاء بني أمية الأندلسيين حتى مات وخلفه عليها ابنه . ولم يعن الأمويون بالجزائر الشرقية على أهميتها ، فظلت في تبعيتهم الاسمية حتى انتشر عقد الخلافة وتفرق أمر الأندلس بين أمراء الطوائف واستقل العامريون بشرق الأندلس ، ثم سنحت الفرصة لمجاهد فغزاها سنة ١٠١٥ كما قلنا .

وقد تمكن هذا الصقلي الأندلسي أن يسيطر على شواطئ الأندلس الشرقية ، ويملك الجزائر الشرقية ويحتل أجزاء من سردينيا وقرصقة سنة

١٠١٦ ويوجه نشاطه كله إلى غزو سواحل إيطاليا وغالة ، بل إنه احتل ثغر لوني Luni على خليج سبيزيا Spezzia في إقليم إتروريا بإيطاليا ، واتخذة قاعدة لأعماله الحربية في إيطاليا . وقد توفي مجاهد سنة ١٠٤٥ وخلفه ابنه على ، فواصل سياسة أبيه ولكنه لم يستطع مواصلة الجهد أمام منافسات الطوائف ، فاستولى بنو هود على ما بيده .

وقد نشطت البابوية في جمع قوى النصارى وتوجيهها لحرب مجاهد الداني ورجاله ، وأصدر البابا يوحنا الثامن عشر منشوراً بابوياً يعلن فيه أنه يمنح جزيرة سردانية لمن يستخلصها من يدى مجاهد . وبعد ذلك بسنوات قلائل خطا البابا بنوا الثامن خطوة أخرى ، فقام بتجهيز حملة دفعت الخزنة البابوية نفقاتها وهدفها مهاجمة قاعدة مجاهد في لوني ، فاجتهد الجنويون والبيشيون في الاستيلاء عليها وتم لهم ذلك سنة ١٠١٥ . وفي السنة التالية ١٠١٦ وفق البابا بنوا في عقد محالفة بين بيشة وجنوا توقفت بها العداوة بين الجمهوريتين إلى حين ، واتجهتا لحرب المسلمين واستخلاص السيادة على البحر التيراني من أيديهم . وسارت قوات جنوة وبيشة المتحدة وهاجمت سردانية في نفس العام وهزمت مجاهداً هزيمة حاسمة ، وقد تقلص نفوذ المسلمين من هذه الجزيرة في سرعة بعد ذلك ؛ لأن مجاهداً عاد إلى دانية ولم يحاول مطاولة بيشة وجنوة . وبعد وفاته سنة ١٠٤٤—١٠٤٥م كاد يتلاشى كل أثر لسيادة المسلمين على سردانية ، لولا وقوع الخلاف بين جنوة وبيشة ، فقوى أمر المسلمين في الجزيرة من جديد .

واستمر الأمر سجالات بين المسلمين والنصارى في ذلك الحوض الغربى للبحر الأبيض طوال القرن الحادى عشر ، فنجد أسطولا إسلامياً يخرج من «المهدية» ويغزو إيطاليا الوسطى سنة ١٠٢٠ ويجمع غنائم وافرة ، وفي عودته لقيه أسطول بيشى واستولى على ما معه من الغنائم . وفي سنة ١٠٣٤ نجد قوات جنوبية وبيزية وبروفنسية تهاجم بونة في إفريقية وتحتاج هذه الناحية وتعيث فيها فساداً ، وهكذا . ويستمر الأمر على ذلك الحال حتى

يقوم البابا ليو التاسع بتوحيد البيشيين والجنوبيين من جديد ، ويوجههم إلى استخلاص سردانية من أيدي المسلمين ، وقد تم ذلك نهائياً سنة ١٠٥٠ ، وكان ذلك هو الخطوة الأولى لضياح سيادة المسلمين على غرب البحر الأبيض .

وأصبح واجب الدفاع عما بقى من سيادة المسلمين على غرب البحر الأبيض ملقى على عاتق بنى زيرى أصحاب إفريقية وبنى حماد أصحاب القلعة ، وكانت لهم السيادة على جزء كبير من الجزائر . ولم تكن الدولتان من القوة بحيث تستطيعان القيام بهذا العبء ، وكثرت غارات النصارى على صقلية وسواحل إفريقية ، فرأى بنو زيرى أنفسهم مضطرين إلى تغيير خطة العداء السافر ، ودخلوا في علاقات سلمية مع الجمهوريات الإيطالية والبابوية ثم مع النورمان بعد ذلك .

وليس إلى الشك سبيل في أن بنى زيرى كانوا مستطيعين أن يقوموا في البحر بدور عظيم ، فقد كان لهم بالساحل اهتمام كبير ، لولا اضطرابهم إلى توجيه كل قواهم إلى محاربة الزناتيين أولاً والعرب الهلالية ثانياً .

ومن دلائل اهتمامهم بالبحر وشعونه أن زيرى بن مناد هو الذى أنشأ مدينة الجزائر ، وقد كان موقعها والجزائر المقابلة لها في البحر في زمام قبيلة بنى مزغنا ، ولذلك كانت تسمى «جزائر بنى مزغنا» ، ثم اختصرت بعد ذلك إلى «الجزائر» . وقد أنشأ أبناء عمهم بنو حماد — أصحاب قلعة بنى حماد وسادة المغرب الأوسط — ميناء آخر هاماً سيلعب دوراً عظيماً في تاريخ البحر الأبيض ، وهى بجاية Bougie أنشئوها سنة ١٠٧٢ وظلت معتصمهم ومعتصم فلول بنى زيرى جميعاً بعد هزائمهم وانهار قواهم أمام الهلالية . وقد ظل بنو حماد محتفظين بشيء من سلطانهم في بجاية حتى فتحها عليهم الموحدون وأدخلوها في طاعتهم .

وقد وصلت سياسة الصداقة مع الجبهة النصرانية ذروتها في عهد الناصر ابن علفاس خامس أمراء بني حماد أصحاب القلعة ، فقد ارتبط بعلاقات صداقة موصولة مع البابا جريجورى السابع ، وسمح له بإقامة أسقف لقرطاجنة وأكرم النصارى في بلاده ، بل جمع من كان فيها من أسرى النصارى وردهم إلى بلادهم . وقد كتب إليه جريجورى خطاباً يدل على ما كان يمكنه نحوه من تقدير ، ويكشف لنا عن جانب من جوانب سياسة هذا البابا الكبير ، بدأه بقوله :

Gregorius, episcopus servus	« من الأسقف جريجوريوس خادم
Servorum Dei, Anazir, regi	خدام الله إلى الناصر ملك
Mauretaniae Sitiphiensis	مرطانية من الولاية السطيفية
Provinciae, in Africa, Solutem	في إفريقية ، السلام
Et Apostolicam benedictionem	والبركة الرسولية ^(١)

يبد أن الجبهة الإسلامية زادت ضعفاً بعد دخول العرب الهلاليين المغرب وقضائهم على دولة بني زيرى . ويبدو أن الجمهوريات الإيطالية كانت ترقب حوادث المغرب بعين اليقظة ، ففي سنة ١٠٥٧ — وبينما الهلاليون يحاضرون المعز بن باديس في المهديّة — اقتحمت عمارة إيطالية الميناء وحاولت دخوله ، وبعد ذلك بثلاثين سنة — أى في سنة ١٠٨٧ — اقتحم البيشيون هذا المعقل الإسلامى الحصين وخربوا البلد . وقد كان لهذا الحادث دوى عظيم في نواحي أوروبا ؛ لأن المهديّة كانت مركزاً للعمليات الحربية الإسلامية كلها كما قلنا . وفي سنة ١٠٦٣ هاجم البيشيون بلرم في صقلية

(١) Mas Latrie, op. cit. Document VII, pp. 7-8.

وكان الناصر قد احتط بجاية سنة ١٠٧٦ وجعلها عاصمة إمارة بني حماد بدلا من القلعة في سنة ١٠٩٠ . ومن بجاية سيطر على المغرب الأوسط كله ، وهو الذى يعرف في التقسيم الإدارى الرومانى بمرطانية السطيفية Mauretania Setifiensis ، وإلى هذا يشير جريجورى في مستهل خطابه . وقد ظل بنو الناصر سادة بجاية والمغرب الأوسط حتى استزلمهم الموحدون وحلوا محلهم سنة ١١٥٣ .

ونهبوها نهباً ذريعاً ، وقد تيمنوا بهذا الغنم فبدعوا بناء كاتدرائية بلدهم الباقية إلى اليوم من مغنم هذه الغزوة .

وبدا بوضوح أن ما بقى من الجبهة الإسلامية في وسط البحر الأبيض وغربه يتصدع تماماً ، وكان العامل الأكبر في هذا التصدع هو فشل أهل إفريقية في حكم صقلية من ناحية ، وعجز مسلمي صقلية عن تنظيم أمور أنفسهم وتوحيد جبهتهم من ناحية أخرى . وبعد أن انتقل الفاطميون إلى مصر بدا بوضوح أن أمر الإسلام في صقلية إلى ضياع ، فقد اشتد التفرق بين المسلمين الصقليين إلى درجة خشي معها المعز بن باديس الزيري من أن يستغلب النصارى الجزيرة ، فأرسل حوالى سنة ١٠٣٥ حملة لتقوية أهل صقلية أمام أعدائهم . وقد بلغ من قصر نظر رؤساء صقلية أن أنكروا هذا العمل من المعز وتوجهت جماعة منهم فقابلت ملك النورمان في أيوليا واستنصرت به على المعز ! وكان النورمان قد انتزعوا جنوب إيطاليا من أيدي البيزنطيين وتطلعوا إلى صقلية . وفي سنة ١٠٦١ عبرت قوة استطلاعية نورمانية خليج مسينا ونزلت صقلية عند ميلازو ، وتغلبت على قوة صغيرة من المسلمين حاولت أن تعترض طريقها . وكان يقود هذا البعث رجار أخو روبرت جيسكارد ملك النورمان ولم يكن لديه أكثر من مائة وستين فارساً . وقد شجعه هذا النجاح فعاد إلى قلورية Calabria وجمع قوة كافية ونزل صقلية في العام التالى ، واستولى على مسينا دون مقاومة تذكر ، ثم استولى على السواحل الشمالية والشرقية للجزيرة . وفي العاشر من يناير ١٠٧٢ استولى على يلرم عاصمة صقلية ، وتم له إخضاع بقية الجزيرة بعد ذلك . وصارت كونتية نورمانية يحكمها رجار باسم أخيه روبرت . وقد حاول تميم ابن المعز بن باديس أمير إفريقية استعادة الجزيرة دون جدوى ، واضطر آخر الأمر إلى التسليم بالأمر الواقع ، وعقد مع روجر معاهدة اعترف له فيها بملكية صقلية .

بهذا ضاعت هذه القاعدة الإسلامية الكبرى التى كانت تمكن المسلمين من القبض على ناصية البحر الأبيض ، وأصبحت حدود دولة الإسلام الغربية عند شواطئ إفريقيا ، وعاد الحوضان الأوسط والغربى للبحر الأبيض إلى منطقة النفوذ الأوروبية ، وأصبحت طريقاً آمنة للجمهوريات الإيطالية ، واتسعت آمال شعوب غربى أوروبا فى مهاجمة المسلمين فى بلادهم ، وخاصة بعد تصفية الجزء الأكبر من الأندلس . وذلك كله يرسم لنا مقدمات الحروب الصليبية ، التى بدأت فى الجهة الأندلسية ثم انتقلت إلى الحوض الغربى للبحر الأبيض ، ثم امتدت بعد ذلك إلى بلاد المسلمين فى المشرق .

هذا هو تاريخ المسلمين فى حوض البحر الأبيض إلى قبيل الحروب الصليبية ، وقد ألمت بما كان لسيادة المسلمين على مياه هذا البحر من تأثير على الدول الإسلامية عامة وعلى مصر والشام والمغرب كل على حدة . ولم أتعرض للحقيقة الكبرى التى نتجت عن ذلك وهى تحول هذه البلاد كلها إلى بلاد إسلامية الدين عربية الثقافة ، تفصل بينها وبين أمم الشواطئ الشمالية لهذا البحر عوامل العقيدة والثقافة واللغة والاتجاه ، فقد حل الإسلام فيها كلها محل النصرانية وغيرها ، وأصبحت العربية لغتها الأساسية الغالبة على أهلها .

ولم أقف عند تلك النتيجة الكبرى ؛ لأنها أظهر من أن نبذى فيها ونعيد . ولم أقف كذلك عند آثار استيلاء المسلمين على الأندلس على البحر الأبيض ؛ لأن مسلمى الأندلس لم يتطلعوا إلى سيادة البحر إلا أيام مجاهد الدانى ، أما طوال عصرى الإمارة والخلافة فقد كانت عناية الأندلسيين بالبحر عناية دفاع لا عناية غزو . وقد أنشأت الإمارة الأموية القرطبية أسطولها بعد نزول النورمان شواطئها على أيام عبدالرحمن الأوسط ، ولم يهتم الأندلسيون بمغازاة شواطئ أوروبا أو بالتجارة معها ، بل اقتصر نشاطهم التجارى والحرى أيضاً على بلاد المغرب وما قام فيه من دول ، والفاطميين

خاصة . ومن هنا لم يكن للأندلس أثر كبير على الموقف العام في البحر الأبيض ، فيما خلا ما هو ظاهر بداهة من تحول الشواطئ الإسبانية إلى شواطئ إسلامية متصلة بالعالم المغربي والمشرقي منقطعة عن الشواطئ الأوروبية .

ل — الأندلسيون والبحر الأبيض :

لم يحاول أمراء قرطبة الأمويون الإدلاء بدلوهم في شئون الملاحة في البحر الأبيض ، بل لم يفكروا في إنشاء أسطول لدولتهم إلا بعد أن فاجأها النورمانيون بغزواتهم على عهد عبدالرحمن الأوسط ، فاجتهدوا في بناء السفن وترتيب الأسطول فتم لهم ذلك بأيسر مئونة . وبعد سنوات قلائل ، عندما أعاد النورمانيون الكرة وأرادوا مهاجمة الأندلس في سنة ٨٥٩/٢٤٥ — ٨٦٠ « وجدوا البحر محروساً ومراكب المسلمين معدة تجرى من حائط إفرنجة إلى حائط جليقية في الغرب الأقصى ، فتقدم مركبان من مراكب الجوس ، فوافوا هذين المركبين في بعض كور «باجة» فأخذوهما بما كان فيهما من الذهب والفضة والسبي والعدة» . والواقع أن المراجع تؤكد اهتمام عبدالرحمن الأوسط بإنشاء دور الصناعة ومخازن السلاح «بعد سنة الجوس» كما سنرى في قرمونة ، وأنشئت على سواحل الأندلس الرباطات وانجفل إليها المرابطون والمتطوعة ليرابطوا حرساً على شواطئ المسلمين . وأنشئت في إشبيلية دار صناعة كبيرة ، ونهضت البحرية الأندلسية نهضة سريعة مردها إلى استعداد أهل شواطئ الأندلس للخدمة في البحار ، فقد كان للأندلس قبل ذلك التاريخ نشاط بحري ، ولكنه غير رسمي ، نشاط لا تحدثنا عنه مراجعنا العربية وإنما نجد صده في المراجع اللاتينية .

فتحدثنا «حوليات مملكة الفرنجة» أنه في سنة ٧٩٨ هاجمت جماعة من المسلمين — تصفهم بأنهم قراصنة — جزيرتي ميورقة ومنورقة ونهبتها ،

وفي الوقت نفسه يحدثنا إجنهارت في «حياة شرلمان» أن شرلمان اتخذ إجراءات لحماية شواطئ ولايتي نربونة وسبتانية من غارات المسلمين .

ومن المناسب هنا أن نذكر فتح الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) ، فإن بعض المراجع تذهب إلى أنها فتحت على يد عبدالعزيز بن موسى بن نصير ، ولكن ليس لدينا ما يثبت ذلك . والغالب أن جماعات من المسلمين نزلتها وسكنتها شيئاً فشيئاً ؛ لأن المراجع تحدثنا أنه قامت في الجزائر ثورة سنة ٢٣٤ — ٨٤٨ — ٨٤٩ على المسلمين ، فأرسل عبدالرحمن الأوسط أسطولاً من ثلاثين قطعة أحمد الثورة وأعاد الجزيرة إلى الطاعة . ويبدو أن هذه الحملة لم تكن غزواً بالمعنى الصحيح لأن أبا عبيد البكري وابن خلدون يذكران أن فتح هذه الجزائر كان في عهد الأمير عبدالله ابن محمد سابع أمراء المروانيين بالأندلس على يد رجل أندلسي يسمى عصام الخولاني سنة ٩٠٣/٢٩٠ وكان رجال الأسطول والفتاحون جميعاً من المطوعة والمرابطة ، وهذه ملاحظة لها أهميتها ؛ لأنها تدل على أن معظم رجال البحرية الأندلسية كانوا من أولئك المرابطين والمجاهدين ، مما يؤكد ما ذكرناه من نشاط مرابطة الأندلس البحري ، ويجعلنا أميل إلى الظن أن الأمير عبدالله عندما أنشأ البحرية اعتمد في ذلك على أولئك المجاهدين . وكان عددهم في الغالب كبيراً . وقد أتم عصام الخولاني فتح الجزر وبنى فيها المساجد وحكمها باسم الأمير عبدالله ثم خلفه عليها ابنه عبدالله بن عصام وأقره الناصر في حكمها . وقد ظل يحكمها حتى سنة ٩٦١/٣٥٠ حين اعتزل الحكم وخرج إلى مكة حيث قضى بقية حياته ناسكاً ، مما يؤكد مرة أخرى غلبة الروح الديني على مجاهدة البحر الأندلسيين .

وكانت سواحل الأندلس الغربية عامرة بالنشاط من أول الأمر ، وكانت السفن رائحة غادية بين ثغور الجنوب الشرقي مثل لقنت والمرية والنكب وبلاد العدو الإفريقية مثل نكور ومرسى فروخ وهي الميناء الرئيسية للدولة

بنى رستم أصحاب تاهرت . أى أن النشاط البحرى الإسلامى أخذ وجهتين : وجهة سلمية هدفها النقل والتجارة مع بلاد إفريقية ، ووجهة حرية هدفها مهاجمة الشواطىء الأوروبية . وقد كان النشاط فى كلتا الوجهتين عظيماً كما يفهم من المراجع . ومن الثابت أن معظم الملاحين كانوا من المولدين والمتعربين والبربر .

وقد نشأت على طول الساحل الشرقى للأندلس ثغور عامرة بالنشاط احتشدت فيها جماعات من الملاحين والتجار والمرابطين ، وكانت أعمر المناطق — كما يفهم من جغرافية البكرى — هى الواقعة بين ألقنت Alicante وأكيلة Aquila ، وكانت أهم تلك المراكز البحرية اسكمبرة Escombera وهى على جزيرة فى البحر فى مدخل خليج قرطاجنة الأندلسى التى تعرف بقرطاجنة الخلفاء . وكانت هذه الجماعات منظمة تنظيمياً يذكرونا بنشاط المدن التجارية الإيطالية فى أول نشأتها ، فكان التجار والملاحون ينظمون أنفسهم جماعات جماعات تعمل معاً ، وكانت كل جماعة تعقد الاتفاقات مع بربر الشاطىء الإفريقى للنزول فى أرضهم فى أمان والحصول منها على المتاجر التى تريد .

وكان الأندلسيون يبحرون إلى إفريقية فى الخريف ، ويقىمون هناك الشتاء ويعودون إلى الأندلس بالمتاجر مع الربيع . وكانت جماعات التجار فى كل ميناء فى الأندلس تختار من بينها «عريفاً» يمثلها يقيم لدى القبائل البربرية لينظم أمور التجارة كما كان قناصل المدن الإيطالية يفعلون فى الموانى . وكانت جماعات من تجار الشواطىء الإسبانية تهاجر إلى إفريقية وتعمر ثغورها أو تنشئ ثغوراً جديدة ، ففى سنة ٨٧٥/٢٦٢ أنشأ نفر من الأندلسيين ميناء يسمى تنس الجديدة على مقربة من تنس الإفريقية ، وفى سنة ٩٠٢/٢٩٠ نزلت جماعة أندلسية أخرى على رأسها رجل يسمى محمد ابن أبى عون بن محمد بن عبدون ميناء وهران وعمرته وبعثت فيه النشاط ، وهكذا .

وكان يحدث أن القبائل الإفريقية تعدو على المستعمرة الأندلسية وتنهبا ، فيحتل الأندلسيون الموقع بالقوة ، كما حدث في وهران سنة ٩١١/٢٩٩ . بل يذكر البكرى أن الأندلسيين كانوا مسيطرين على عدد كبير من ثغور إفريقية مثل بونة وبجاية ومرسى الدجاج .

م — بجّانة ، جمهورية بحرية إسلامية أندلسية :

والطف مثل لهذا النشاط البحرى الأندلسى هو اختطاف نفر من «البحريين» لميناء بجّانة المعروفة اليوم باسم Pechina . وأصل هذا الميناء موضع بسيط على الساحل الأندلسى الجنوى على مصب وادى أندرش Rio Andaray شرقى المرية . وكان الأمير عبدالرحمن الأوسط قد عمد إلى جماعة من العرب اليمنيين النازلين فى هذه الناحية بأن يربطوا على الساحل ويحرسوه من نزول المجوس (النورمانيين) ، وفى مقابل ذلك أقطعهم سهل وادى أندرش الأدنى . وكانت جماعات من «البحريين» الأندلسيين تخرج من المرية إلى إفريقية وتعود إليها . ويبدو أن العرب اليمنيين اعتدوا عليهم أو آذوهم فى تجارتهم ، فرأى هؤلاء أن يتفقوا مع العرب على أن يبتنوا لأنفسهم قصبة ومخازن لمتاجرهم عند خليج بجّانة ويسمى بلغة الأندلسيين «مرية بجّانة» . وأذن لهم العرب فقاموا بإنشاء القصبة ونظموا لأنفسهم حكومة يختارون رجالها من بين أنفسهم كما كانت الجمهوريات الإيطالية تفعل . وقد بدأ أولئك «البحريون» فى بناء مدينتهم وتنظيم أنفسهم من عام ٨٨٤/٢٧١ ، بل يذهب البكرى إلى أنهم حرصوا على أن تكون بلدتهم أشبه البلاد بقرطبة فى هندستها ، ومن ذلك أنهم وضعوا على باب بلدتهم تمثالا للعدراء يشبه ذلك الذى يقوم على مدخل قطرة الوادى المؤدية إلى قرطبة ، وهذه الملاحظة تدل على أن نفراً من أولئك «البحريين» كانوا نصارى ، أقاموا حول بلدهم حصناً وبنوا لأنفسهم قصبة ومساجد ، وانجفل إليهم الناس وعمر البلد بالناس وقامت فيه مناسج الحرير . ومما يؤكد ذلك قول ابن حيان فى حوادث سنة ٢٧٦ :

« وفيها أيضاً خاطب البحريون — الذين اختطوا مدينة بجانة بالساحل القبلى ، واتخذوها قاعدة لهم فرضة لأهل العدو من تلقائهم : عملوا ذلك آخر أيام الأمير محمد والده ، وتزايد عملهم في تمهيدها من بعده — فكتبوا إلى الأمير عبدالله ، عند جلوسه في الخلافة بعد ، يسأله إقرار واليهم عليهم وإعفاءهم من غيره ، وإباحتهم البنين حوالى قصبتهم بجانة والتوسع في أعراضها لتكاثر الناس عندهم ، فأجابهم إلى ما سأله من ذلك . فأوسعوا الاختطاط بأرض بجانة صدر خلافة عبدالله ، حتى اتخذوا بها عشرين حصناً ، مثل : وادى بجانة والحامة والخاية وبرشانة وعالية وبنى طارق وحصن ناشر ، وغيرها ؛ حموها وأوطنوها هم ومن نزل بهم ، وجاءهم الناس من كل جانب ، فأمنوا عندهم وكثروا ببلدهم » ، مما يدل على ازدهار البلد واتساعه .

ويحدثنا ابن حيان في خبر آخر عن بعض أحوال بجانة ، وحديثه يدل على أن البلد كان يحكم نفسه بنفسه . وأن أهله كانوا يختارون منهم رئيساً يقوم بشئونهم ، وأن سفن النصارى كانت تحاول مهاجمة البلد وأذاه على غير جدوى ، وسأورد خبر بن حيان — على طوله — لأنه يلقي ضوءاً عظيماً على أحوال تلك « الجمهورية » التجارية الأندلسية ، قال :

« قال عيسى : وفيها غزا سوار بن حمدون المحارى — أمير العرب بغرناطة من كورة البيرة — البحرين الذين اختطوا مدينة بجانة بأمر الأمير المنذر وأخيه الأمير عبدالله ، وقد بلغه حسن حالهم فيها واجتماع الناس إليهم واستخفافهم بمن جاورهم من العرب الغسانيين واستطالهم عليهم وخوفهم منهم على أنفسهم لقلة عددهم ، فقصدهم سوار في عرب البيرة المنتزعين معه إلى حصن غرناطة ، طعماً في انتهاز الفرصة منهم وإخراجهم عن موطنهم بجانة والانتصار لقومه الغسانيين منهم ؛ وكان عامل السلطان يومئذ على هؤلاء البحرين رجلاً منهم اسمه عبدالرزاق بن عيسى ، قد طار له الاسم بحسن السيرة وجودة الضبط والحزامة مع الغلظة على أهل الشر والذعارة

والمبالغة في عقوبة من ظفر به منهم ، حتى إن المسافرين عندهم كانوا يضعون أمتعتهم ورحالهم بالأسواق والشوارع مطروحة بلا حارس فلا يكاد يضيع شيء منها ، وذلك كان من أعظم أسباب اجتماع الناس إلى بجانة من الآفاق ، واغبتابهم بحلولا وسكونهم إلى ضبط أميرها عبدالرزاق وحمايته وتحصينه الفروج والأموال ، وسعيه في توسعة الغارة فيما حول بجانة حتى قامت فيها حصون كثيرة وقرى أهلة في «الأسناد» وفي «نشارة» وغيرهما ، وحافظ على رعاية من قصد بلده ورغب في مجاورته ، فكثر الناس لديه واغبتبوا به وبجواره ، وحسده كثير ممن جاوره على حسن حاله ، فقصده سوار في ذلك الوقت طمعاً فيه . فلما علم عبدالرزاق بخبره رهب شداته وذهب إلى مداراته ؛ فأخرج وجوه البحرين أصحابه إلى العرب الغسانيين جيرانهم ، يستدمون بذمة جيرتهم ويستصفحونهم عن إجرام سفهائهم ويتشفعون بهم إلى سوار ابن عشيرتهم ، ويسألونهم لقاءه واستلطافه لهم ووعظه فيهم ، والرغبة إليه في الانصراف عنهم وموائقته على إجمال عشيرتهم ، فأسعفهم الغسانيون بذلك ، وخرجت جماعة من وجوههم إلى سوار ، منهم : سعيد بن أسود ، وخشخاش ابنه ، ومحمد بن عمر بن أسود ابن أخيه — وكان مكفوفاً — وأبوه الأدهم بن مخلد الغساني وغيرهم ، فلقوا سوارا وكلموه واستطفوه حتى انصرف عنهم وهلك على نية ذلك . وصار مكانه سعيد بن جودى فعاد البحرىون إلى التمرس بالغسانيين — الذين كانوا شفعاءهم — والتمرس بهم والتهويس بما كان منهم في مدافعة سوار عنهم ، حتى استحال الغسانيون عليهم وأنفوا من استطالتهم ، فكتبوا إلى ابن جودى يشكونهم واستنهضوه لغزوهم ، وقصده بعضهم لما أبطأ عليهم محرراً ، فخفف معهم وجاء إلى بجانة — وهى مدرية لم يضرب بعد عليها سور — فحاربهم فيها أياماً قاوموه فيها فلم يظفر بهم بطائل . وبينما هم على ذلك إذ احتل بهم شنير — قومس أنبورس من بلد الفرنجة — فى خمسة عشر مركباً أرفأت بساحل المرية فرضة بجانة ، فاحترق بها كثير من مراكبهم

وغيرها ، وانتشرت بالغارة هنالك حتى قتلت خلف بن زهرى بالحوض ، وكان من أعلامهم ؛ فخرج جميع البحرين نحو المرية ليلاً ، فلما أشرفوا على المرية هابهم العلوج فانقبضوا وألّوا إلى المتاركة ودعوا إلى المفاداة والمبايعة ، فأجابهم البحرىون إلى ذلك . وتم صلحهم على يدى عبدالرحمن بن مطرف الحاج صاحبهم ، وكان منذ وقعت عين العليج شنير عليه — كان وسيماً جميلاً حسن الملبس — فمال العليج إليه فأذنه وقلده عقد صلحه مع قومه ، وأجابه إلى ما التمسه وقارضه (Sic) فيما اشتهاه ، فانقضى ما كان بينهم وبين العليج من يومهم وانصرف عنهم بمراكبه ، ففرغوا لابن جودى ومن معه — وقد ظن بن جودى أن مدداً جاءهم — فرحل عنهم مسرعاً ولم يبق عليهم ، فثبتوا عزة بموطنهم . وقد طاولهم — بانصراف ابن جودى وانصراف صاحبه سوار قبله عنهم — اسم عظيم فى الباس والقوة رفع عنهم الطماعية ممن حولهم من ذباب الفتنة ، فكفوا فيما بعد عن التعرض لهم ، فضربت حاضرتهم بعطن وعمر قطينها وكثر أهلها واتسعت عمارتها وحسنت حال من فيها ، فلحقت بكبار أمصار الأندلس وحمت استعبادتها من قبل البحر فجعل قدرها .

وقد استمرت بجانة عامرة حتى سنة ٩٥٥/٣٤٤ عندما نقل عبدالرحمن الناصر عاصمة كورة المرية إلى ميناء المرية نفسها وعنى بها وأنشأ فيها المباني والمصانع والمساجد ، فانتقل إليها الكثيرون من أهل بجانة وبدأت هذه الأخيرة تخمل ، وأخذ أمرها ينحط فى عهد الحكم المستنصر . وفى القرن الحادى عشر نجدها قد أصبحت قرية صغيرة وفقدت أهميتها .

ن — ماتسميه المراجع النصرانية بأعمال قراصنة المسلمين قبل الحروب الصليبية :

كان للأندلسيين إذن نشاط بحرى عظيم : كانت لهم أساطيل قوية تحرس الشواطىء حراسة يقظة دائمة ، وكانت لهم أساطيل تجارية تتاجر مع المغرب وتنقل الناس والبضائع إلى شواطئه ، وكانت لهم جماعات من مجاهدة البحر

تغزو شواطئ البلاد النصرانية وترد أذاها عن بلاد المسلمين . والمراجع اللاتينية تصف هذه الناحية الأخيرة من نشاط الأندلسيين البحرى بأنه نشاط قرصان ، وهو — فى الواقع — لم يكن كذلك تماماً . ومن المناسب أن أنقل هنا آراء للأستاذ ليفى بروفنسال تلقى ضوءاً على هذه الناحية الهامة من تاريخ المسلمين البحرى فى حوض البحر الأبيض الغربى ، قال بعد أن تحدث عن سفارة أرسلها أوتو الإمبراطور التوتونى إلى عبدالرحمن الناصر سنة ٩٥٠ يسأله فيها أن يبذل جهده فى كف أذى «قراصنة» الأندلسيين عن شواطئ البحر الأبيض وغاراتهم على ما يلى هذه السواحل من بلاد فى غالة وشمالى إيطاليا وسويسرا :

ومن المناسب هنا أن نفتح شؤلتين نذكر بينهما شيئاً عن نشاط قراصنة الأندلس فى البحر الأبيض خلال القرن العاشر ، وأن نتبع — بوجه خاص — الأوديسية الفذة التى قام بها جماعة من غزاة البحر المغاربة ، الذين نزلوا عند فراكسينتوم Fraxinetum وأسسوا «دولة إسلامية غربية مقحمة فى صمد بلاد النصرانية» ، قدر لها أن تظل قائمة بضع عشرات من السنين قبل أن يتيسر القضاء عليها . ومن الواضح أنه من العبث أن نلتمس فى كتابات مؤرخى المسلمين عن هذه القرصنة ؛ إذ أنها لم تكن منظمة تنظيمياً رسمياً ، أى أن الدولة الأموية لم تنظمها ، ولكنها كانت تتغاضى عنها بل تشجعها ، بخلاف القرصنة المغربية فى العصور الحديثة ، إذ أن دول المغرب كانت تنظمها وتشرف عليها . ومن الحق أن نقرر هنا أن الدويلات المسيحية كانت تقف نفس موقف الدولة الأموية من رعاياها الذين كانوا يغيرون على شواطئ المسلمين وسفنهم . ولم يكن قراصنة قطلونية وأمبورياس Ampurias وروسيون Rousillon بأقل خطراً على الملاحين الأمنين من قراصنة الأندلسيين ، بل إنهم لم يكونوا يعفون سفن النصارى إخوانهم من الأذى . ومن المظنون أن قراصنة المسلمين كانوا شيئاً آخر غير المجاهدين المسلمين الذين كانوا يغazon النصارى بدافع دينى ، وكذلك لا تستطيع القرصنة

المسيحية أن تنسب نفسها إلى الكنيسة أو المسيحية . وقد كانت كلتاها خطراً انضاف إلى أخطار الملاحاة أثناء العصور الوسطى المتقدمة ، كانت نوعاً من القدر الذى يلاقيه راكب البحر فى تلك العصور . ولدينا ما يبرر القول بأن معظم أولئك الذين كانوا يقطعون البحر من المسلمين لم يكونوا من العرب أو البربر ، لقلة ما كان لدى هؤلاء الأخيرين من المواهب اللازمة لراكب البحر . ويغلب على الظن أنهم كانوا من المولدين أو من مستعربى الأندلس النصارى من رعايا خليفة قرطبة ، لا يتحدثون العربية وإنما لهجتهم الرومانية المعروفة بعجمية أهل الأندلس ، مثلهم فى ذلك مثل البحريين الذين أنشئوا اتحاد بجانة فى القرن التاسع . ولسنا نقول هذا على سبيل التبرير لأعمال قطاع البحر من المسلمين ، ولكننا لسنا نرى من العدالة أن نصف أعمالهم دون أن نذكر فى نفس الوقت أن المسيحية الوسيطة لم تخل من أمثالهم . ولا شك أن هؤلاء الأخيرين لم يبلغوا من العتو والصيت المرهوب ما بلغه أمثالهم من الأندلسيين ، ولكن أفاعيلهم كانت كثيرة أيضاً ، ويكفى أن نتصفح معاجم التراجم الأندلسية حتى تبين أنهم كانوا يصيبون أهل الأندلس وينزلون بيوتهم من الخراب والدعر والقتل ما يربو بكثير على ما كنا نحسبه عادة » .

وكانت مهاجمة السفن فى البحر وأسر من فيها ثم المساومة على فدائهم أمراً لا دخل فيه للملوك ، نصارى كانوا أو مسلمين . ولم يكن هؤلاء وأولئك ليهتموا بنزول القرصان على شواطئ ممتلكاتهم ، إلا فى الحالات التى يصبح هذا النزول صريحاً خطراً على أراضيهم . وكان لا بد لهم فى هذه الحالة أن يكون لديهم من القوة ما يستطيعون به مدافعة أولئك الطغاة . ولكن الغالب أن عبء هذه المدافعة كان ملقى على كواهل سكان الشواطئ أنفسهم . كان عليهم أن ينظموا أمور الحفاظ على أنفسهم وإلا تحملوا عواقب إهمالهم ، فكان عليهم أن يقيموا ما يلزم للحرس والحماية ، فينشئوا المراقب العالية ليكشفوا المقبل من البحر من بعيد ، وأن ينظموا جبهة بحرية

حقيقية ، وأن ينقلوا قراهم ومساكنهم إلى المرتفعات القريبة من الشاطئ واتخاذ ما يمكن للتحرز من أخطار البحریات المعادية . هذا كله كان قائماً على شواطئ المسيحية والنصرانية ، ولم يكن مع ذلك كافياً لرد أطماع أولئك الذين كان يعيشون من القرصنة » .

« فإذا لم يقنع أولئك القرصان بغنائم الضربات السريعة التي لا تدوم أكثر من ساعات ، وطمعوا في التوغل في داخل البلاد كان الخطر أشد وأعظم . وكان القرصان ينجحون في هذا التوغل عن طريق دخول مصبات الأنهار والتصيد في مجاريها ، كما كان النورمانيون يفعلون ، أو النزول في موضع من الشاطئ يختارونه مقدماً ، والاستيلاء على موضع حصين قريب يشنون منه الغازات على الأراضي المجاورة . وكان القراصنة نادراً ما يتبعون أسلوب النورمان ، أى دخول مصبات الأنهار ، وإنما كان الغالب أن يلجئوا إلى الطريقة الأخرى ، طريقة النزول على الساحل بالقوة والتحرز في موضع حصين ، وكان ذلك يحتاج إلى جرأة ويتعرض صاحبه لخطر أشد . وهذا هو الذى فعلته جماعة من المغامرين نزلوا عند فراكسينتوم على شاطئ بروفانس وتحرزوا في موضع هناك في العشرات الأواخر من القرن التاسع الميلادى » .

س — أوديسية فراكسينتوم :

« وتحدثنا بضع فقرات من « حوليات سان برتان » Annales de Saint Bertin بأن نفرا من قراصنة المغاربة les Maures — وهذه هى التسمية التى كانت تطلق على قراصنة المسلمين إذ ذاك — دخلوا مصب نهر الرون وصعدوا فيه بضع مرات خلال النصف الثانى من القرن التاسع . ففى سنة ٨٤٢ وصلوا إلى قريب من Arles ونزلوا في موضع على شاطئ النهر . ومضوا ينهبون ما وصلت إليه أيديهم ، ثم عادوا إلى سفنهم ورجعوا أدراجهم دون أن يصيبهم أذى . وحدث هذا مرة أخرى سنة ٨٥٠ ولكن رياحاً

شديدة حالت بينهم وبين العودة إلى سفنهم فاستؤصلوا عن آخرهم . وفي سنة ٨٦٩ تمكنت جماعة أخرى من أولئك المسلمين من النزول والتحصن عند كامارج Camargue وتمكنوا من أسر « روتلاندوس » Rotlandus أسقف آرل ، وكان قد توجه لردهم على رأس قوة من المحاربين ، وقد مات الأسقف عقب أسره بقليل بينما كان أسروه يفاوضون في أمر فديته ، فاحتالوا للحصول على الفدية رغم موته بإجلاسه ميتاً على كرسي لابساً ملابسه الكنسية وأنزلوه إلى البر على هذه الصورة وحصلوا على الفدية » .

ثم يورد الأستاذ بروفنسال بعد ذلك تفاصيل تلك المستعمرة الإسلامية في فراكسينتوم : فيما بين سنتي ٨٩١ و ٨٩٤ تمكنت جماعة من قرصان الأندلسيين — في ظروف لم تتوصل إلى الآن إلى معرفتها — من النزول في خليج سان تروبيز Saint Tropez على شاطئ بروفانس وتحصنوا في جبل فراكسينتوم المطل على الخليج ، وهذا الموضع هو المعروف اليوم باسم جارد فرينيه Garde Frienet . ثم أقبلت جماعات أخرى من الأندلسيين وانضمت إليهم ومضوا يعبثون في نواحي كونتية Frejus يبنهون ويحرقون ويقتلون ، ونهبوا كبرى مدنها ، ثم أوغلوا في منطقة مرسيلىا خربوا كنيسة سان فيكتور Saint Victor المشهورة ثم صعدوا مع نهر الرون ونشروا الرعب والخراب في مقاطعتي فالنتان Valentin وفين Vienne . وفي السنوات الأولى من القرن العاشر امتد مجال نشاطهم حتى سفوح جبال الألب ، وأحرقوا دير فوفاليز Vovalaise على مقربة من سوز Suze ، وملكوا نواحي ممرات الجبال وتربصوا للسفار والحجاج الذاهبين إلى رومة ، وثقلت وطأتهم وكثرت أفاعيلهم في ناحيتي أمبرن Embrundan وجزير يفودان Graisivon . وشجعهم هذا النجاح فتوغلوا في الوديان الإيطالية دون خوف ، وخربوا دير أولكس Aulx وتوغلوا في بيدمونت حتى أكي Acqui وأستي Asti .

وكان مركزهم في سنة ٩٣٣ كما يلي : تقوم فرق صغيرة خفيفة منهم بضربات سريعة خاطفة في الإقليم كله ، بينما تتحصن كتلتهم في إقليم

فراكسينتوم الجبلى على مقربة من الشاطىء . وكانت مقاومة الأقاليم المصابة ضعيفة متقطعة أول الأمر ، ففي سنة ٩٣١ توجهت حملة نحو إقليم فرينية Freinet يؤيدها أسطول بيزنطى لم توفق فى شىء . فى سنة ٩٣٩ توغلت جماعات المسلمين فى جبال الألب حتى وصلت إلى سان جالن St. Gallen (فى سويسرا الحالية) ونهبوا كنيسها . وفى سنة ٩٤٢ توجهت ضدهم حملة جردها هوجو ملك إيطاليا ورومانوس ليكاينوس إمبراطور بيزنطة ، وكان حظها معهم أحسن من حظ الحملة الأولى ، ولكنها لم توفق فى طرد الأندلسيين من فراكسينتوم . ولم يتم إخراجهم من الإقليم إلا على يد أوتو إمبراطور ألمانيا ، فقد سار لحربهم سنة ٩٧٢ وأخرجهم من معتصمهم عند خليج سانت ترويز .

هذه هى قصة أولئك المغامرين الأندلسيين ، الذين قاموا بأجرأ محاولة قام بها المسلمون على شواطىء جنوب أوروبا الغربية على طول التاريخ ، وقد أسهبا فى ذكرها لأنها تدل على قوة أولئك الغزاة البحرين ، ومقدار ما كانوا يستطيعون إنزاله من الأذى ببلاد أوروبا النصرانية . وحوليات التاريخ حافلة بأخبار الكثير من ضربات الأندلسيين والمغاربة على شواطىء أوروبا ، مما يأذن لنا فى القول بأنهم كانوا أنشط المسلمين فى حوض البحر الأبيض ، وأن بيرين مُحِقُّ فيما ذهب إليه من أن هذا النشاط الإسلامى قد قضى على الملاحة تماماً فى مياه أوروبا الجنوبية الغربية . فقد استولى المسلمون كما رأينا على جميع الجزائر الواقعة فى الحوض الغربى للبحر الأبيض ، وكان لهم نصيب فى فتح صقلية ، بل هم الذين فتحوا إقريطش على بعدها عن بلادهم ، ولم يكتفوا بذلك بل نزلوا الشواطىء الإيطالية والغالية كما رأينا .

بيد أننا لا يمكننا القطع بأن أولئك الغزاة كانوا أندلسيين فحسب ؛ إذ لا شك أن أهل المغرب قاموا بنصيب كبير فى هذا النشاط ، فهم الذين فتحوا

صقلية ، وهم الذين احتلوا جنوى إيطاليا وقاموا بحملات كثيرة على بلاد
إيطاليا الغربية ، بل وصلوا إلى أحواز روما ونهبوها ذات مرة ، وكانوا أول
من غزا سردينيا واستقر فيها ، قبل أن يفتحها مجاهد الداني مع قرصقة ويقيم
فيها حكماً إسلامياً نحو ثلاثين سنة ، كما رأينا .